

و تستمر المعركة
حتى يستسلم الشيطان!
٢
د. خالد أبو شادي
أكل الحرام
الكذب
الخوف
الظن
الحسد
سوء
الغضب

٢٠١٥



1436 هـ-2015 م

الكـــــتاب :	وتستمر المعركة
الكـــــاتب :	د / خالد أبو شادي
عدد الصفـحات :	144 صفحة
عدد الألـــوان :	2 لون
رقـــم الإيداع :	2014/19314
الترقيم الدولي :	978/977/426/156/5



تليفون وفاكس

002 02 / 33026637 - 33446727 - 33465252

E-mail:rayatop@hotmail.com
Www.daralraya.com

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب (وتستمر المعركة)، وهو تتمة الجزء الأول، وهو بمثابة الواجب العملي، **وخطة العمل المقترحة** في هذه المعركة، ويتعرض لمعارك حامية بين الإنسان وأعدى أعدائه: شيطانه.

هي خطة تفصيلية تستهدف نزع الحيرة من قلبك، وبث العزيمة فيك، فمتى صدَقَت عزيمتك يئس منه الشيطان، ومتى كنت مترددا طمع فيك وأسرك في من أسره واسترقَّه.

وهذا الجهد خلاصة علماء أفنوا أعمارهم تدبرا في كتاب الله، وأحاديث النبي ﷺ، وما أنا معهم في هذا المضمار إلا كبائع التمر في سوق هَجَر، ومدَّعي الفصاحة بين أهل الوبر.



والله أسأل أن يمدَّنا بمَدَد من جنده ..

فننتصر على عدوه ..

لتسعد بنا الملائكة غدا ..

وتزفنا إلى الجنة.



د. خالد أبو شادي



الفصل الأول

مفهوم الحرب الشاملة



الفصل الأول



مفهوم الحرب الشاملة

قال الله عز وجل:

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤] .

وهذه الآيات تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول، فهي المعركة الحامية التي تستخدم فيها الأصوات وسلاح الفرسان والمشاة في المعارك والمبارزات، ويُرسل فيها الصوت المفزع ليزعج الخصوم ويخرجهم من قلاعهم الحصينة، أو يستدرجهم للفخِّ المنصوب والمكيدة المدبرة، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال!

هذه هي اللغة التي يفهمها العرب، وهي أقصى صور الحرب ضراوة لديهم، والمراد بها التهيئة النفسية كي تعلم أنك تخوض حربا شرسة تستدعي أقصى درجات التحفز والاستعداد والمواجهة.

الطريق الأول: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾

وهو من الفَزِّ ، والفز هو **(ولد البقرة الوحشيَّة لما فيه من عدم السّكون والفرار)**[1] .

فكما تستنهض ولدك الذي تكاسل، وتقول له: فز. تعني انهض، وقم من الأرض التي تلازمها كأنها ممسكة بك. فالمعنى: استنهض من استطعت واستخفهم واخدعهم (بصوتك) بوسوستك أو بصوتك الشرير، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك، أو من جنودك من شياطين الإنس الذين يعاونونك ويساندونك، فسلاح إبليس في هذه الحرب صوت، والصوت هنا إما أنه استعير لإلقاء الوساوس في

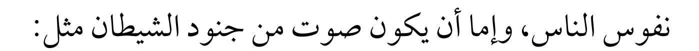
(١) تاج العروس ١٥/٢٧١.

نفوس الناس، وإما أن يكون صوت من جنود الشيطان مثل:

- صوت كل نائحة جازعة عند نزول مصيبة بها، فسامع صوتها يتشجع على التسخط ويضعف عن الصبر، والنياحة فيها تقوية للقوة الغضبية في الإنسان، ولذا كانت من علامات الجاهلية.

- الغناء: قال مجاهد في قول الله تعالى ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾: (**هو الغناء والمزامير**)(٢)، والغناء الفاحش فيه تشجيع للقوة الشهوانية في النفس البشرية.

- أو هو كل صوت يدعو إلى ما يدعو إليه إبليس، فكل داعٍ إلى تحرر المرأة من حجابها وحيائها! وما يلحق به من التمثيل الماجن والعري الفاضح والاستهزاء بالدين تحت مسمى الفن الهادف! وكل متكلم بضلال لا بهدى، وبغيٍّ لا برشد، فهو بوق الشيطان وخطيبه، ومتحدث رسمي يالنيابة عنه.



الطريق الثاني: ﴿ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

والجلبة: الصوت المزعج الشديد، وأجلَبَ عليه: صاح به، وأجلبَ على الجواد: صاح به راكبه ليسرع، والمقصود به إرهاب الخصم وبث الرعب في قلبه، وما أشبه الجلبة بما نسمعه من صوت جنود الصاعقة أثناء هجومهم على العدو، أو صيحة قائد الجيش في قواته محفِّزا لهم للنفير العام أو الهجوم الشرس، ومن فوائد هذه الصيحة أنها تشتِّت من انتباه الخصم، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ليسهل التغلب عليه.

وقوله تعالى: ﴿ بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ والعرب تقول الخيل وتريد بها الفرسان، فهؤلاء هم سلاح الفرسان في الجيش، أما قوله: ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ فمن قولهم: جاء راجِلاً. أي ماشيا، ولفظ (رَجْل) يعبر عن الاستمرار، وكأن هذا هو عمله وديدنه، وهؤلاء يمثِّلون سلاح المشاة.

---

(٢) تلبيس إبليس ص: ٢٣٢

وقد يكون الداعية إلى الشر راكبا إلى من يدعوه حاملا معه الضلالات والأهواء، كالمنصِّرين الذين يركبون ويقطعون الفيافي والقفار في سبيل التبشير بديانة محرفة، أو الذي يسافر إلى حفل مجون واختلاط، أو راجلا إلى مكان معصية أو موعد هوى أو مؤازرة ظالم أو مشي بنميمة.

والمعنى: أجْمِع يا إبليس لبني آدم كل ما استطعت من وسائل الفتنة والإغواء لإضلالهم، وهذا تمثيل لحال الشيطان الذي يحاربنا بمختلف القوات وكافة فصائل جيشه من فرسان ومشاة .

بطولات ميدانية

قال السري السقطي:

(بلغني أن امرأة كانت إذا قامت من الليل قالت:

اللهم إن إبليس عبد من عبيدك، ناصيته بيدك، يراني من حيث لا أراه، وأنت تراه من حيث لا يراك، اللهم إنك تقدر على أمره كله وهو لا يقدر من أمرك على شيء، اللهم إن أرادني بِشرٍّ فأرِدْه، وإن كادني فكده، أَدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شرِّه) (٣) .

(٣) صفة الصفوة ٤/٤٤٠ .



الطريق الثالث: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾

والمشاركة في الشيء تعني أن يكون للمشارك نوع من التملك والتصرف فيه، ومشاركة الشيطان جاءت في شيئين مهمين، هما عصب الحياة: المال والأجيال.

أما كيفية مشاركة الشيطان للإنسان في المال فبثلاثة أشياء:

الطلب المحرم:

أن يحبِّب إليه المال، فيتعلق به قلبه، فلا يمتنع عن ربا، أو قمار، أو سرقة، أو غصب، أو غش، أو رشوة، أو بيع حرام كالخمر، وآلات الغناء، وبيوت الخنا؛ لأنه ينظر إلى ما يكسبه من دولار ودينار دون ما يستوجبه ذلك من عذاب النار.

قال النبي ﷺ وهو يبيِّن لنا ما هو فرس الشيطان:

«الخيل ثلاثة: ...، وفرسٌ للشيطان، .....، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه،....» (٤) .

الإنفاق المحرم:

مثل ما يُعطى الكاهن أو العراف أو الساحر، أو مهر البغيِّ، أو شراب خمر، أو يسافر لمواطن الفتنة ينفق فيها ما يلبي شهواته ونزواته، أو أن يقع في إسراف وتبذير يدخله في زمرة الشياطين.

وقد وصف الله المبذِّرين بأنهم إخوان الشياطين:

﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] .

قال **ابن عباس رضي الله عنهما** في تعريف المبذِّرين:

---

(٤) صحيح: رواه أحمد عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٥٠.

(هم الذين ينفقون المال في غير حقِّه) [٥] .

ومن ملامح التبذير قول نبينا:

«فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان» [٦] .

قال المناوي في تعليل أن الفراش الرابع للشيطان:

(لأنه زائد على الحاجة وسرف، واتخاذه مماثل لعرض الدنيا وزخارفها، فهو للمباهاة والاختيال والكبر، وذلك مذموم، وكل مذموم يضاف إلى الشيطان لأنه يرتضيه، ويحث عليه، فكأنه له أو هو على ظاهره، وأن الشيطان يبيت عليه ويقيل) [٧] .

أو قد يكون الإنفاق في الأصل مستحبا، ثم يضيع ثوابه بالمنِّ أو الرياء. قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه:

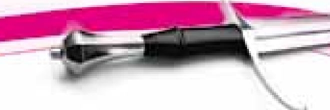
(ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سَرَف ولا تبذير وما تصدَّقت به فهو لك، وما أنفقتَ رياءً وسمعةً فذلك حظ الشيطان) [٨] .

المنع المحرم:

مثل منع الزكاة المفروضة، وعدم أداء حج الفريضة، وعدم الوفاء بالنذر، والتقصير في النفقة على النفس والأهل، ويلحق بذلك: تحريم ما لم يحرِّم الله، والتحليل بغير علم، ومن ذلك: تحريم أهل الجاهلية لأجنة الأنعام على الإناث إذا وُلِد حيا، وتحليله للذكر والأنثى إذا وُلِد ميتا، وتحريم ركوب بعض الظهور، وتحريم بعض الأنعام على بعض الناس وتحليلها لمن يريدون.

وهنا بعض الحيل التي يُزيِّنها الشيطان للتهرب من الزكاة، فمن الحيل: أن يتصرَّف في

(٥) فضل الله الصمد ١/ ٥٣٤.
(٦) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن جابر كما في صحيح رقم: ٤١٩٨.
(٧) فيض القدير ٤/ ٤٢٤
(٨) الدّر المنثور ٥/ ٢٧٥



ماله الذي تجب عليه الزكاة قبل تمام الحول، والتصرف هنا قد يكون بيعا أو هبة أو إتلافا، والقصد من كل هذا: الفرار من الزكاة.

وحيلة ثانية: أن يغيِّر النية في النِّصاب الذي تجب عليه الزكاة قبل تمام الحول، وذلك كأن يكون لديه أرض قد خصَّصها للتجارة، وقبل تمام الحول ينوي بها البناء والسكن.

وحيلة ثالثة: وهي الاكتفاء بدفع الضريبة بدلًا من الزكاة، ففرض الحكومة الضرائب على شعبها لا يُسقِط الزكاة عمن ملكوا نصاب الزكاة وحال عليه الحول، بل يجب عليهم إخراج الزكاة وتوزيعها في مصارفها الشرعية.

ومن المنع المحرَّم: تحريم بعض الحلال كما حدث مع **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، فقد أُتِي **عبد الله بن مسعود** بضرع وملح، فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال **ابن مسعود**: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصائم أنت؟ قال :لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرَّمتُ أن آكل ضرعا أبدا، فقال **ابن مسعود**:

(هذا من خطوات الشيطان، فأطعم وكفِّر عن يمينك)(٩) .

الطريق الرابع: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾

أما مشاركة الشيطان للإنسان في الولد، فيكون:

★ بطلب الوالد الحصول على الولد من الزنا؛ لتقوية النسل وتحصيل الشجاعة، كما كانت تفعل بعض العرب في جاهليتها.

★ أو يعبِّد الولد لغير الله: كعبد اللات، وعبد العزى، وعبد الحارث.

★ أو يقتل ولده من الفقر أو خشية الفقر، أو يقتل الإناث خشية العار.

★ أو يُهمِل تعليم الأولاد الخير والأخلاق الحسنة، فيصبحوا من حزب الشيطان

(٩) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١/ ٢٨٠ ط مكتبة نزار مصطفى الباز.



ويشاركوه في معركته ضد الخير، ويدعون للفحش والفجور وسيئ الأخلاق والفعال.

★ وأعظمها فتنة وأشدها ضررها أن يكون ولده كافرا بأن يهوِّده وينصِّره.

الطريق الخامس : ﴿وَعِدۡهُمۡ﴾:

وحذف المفعول به، فلم يذكر بم وعدهم الشيطان للتعميم، وإطلاق الخيال فيما يمكن أن يعدهم به إبليس. وسماه وعدا لأن الشيطان يوهمهم بحصوله، فلا يزالون ينتظرونه كشأن الكذاب الذي يمتنع عن الوعد بشيء محدَّد خشية افتضاحه، فيجعل مواعيده كلها مستقبلية مبهمة، ولذلك اعترض الله سياق الكلام بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .

لكن .. ماذا هي وعود الشيطان؟!

يقول صاحب الظلال مبيِّنا بعضًا منها:

(إبليس مأذونٌ في أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية الخادعة:

كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص

والوعد بالغنى من الأسباب الحرام

والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة . .

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة؛ وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة .فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة) !!



التوبة سابقة التجهيز

وهي توبة إخوة يوسف حين صمموا على قتله والتخلص منه، فقالوا:

﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ ﴾ [يوسف: ٩] .

قال سيد قطب: وليست التوبة هكذا.. إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ، فليست بالتوبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان!

وهذا الوعد إما باطل لا يقع، وإما حاصلٌ لكنه مكروه غير محمود العاقبة، كما وعد إبليس مثل ما يسوِّله للناس من قضاء دواعي الغضب والشهوة ثم تكون المرارة، ويُخَيَّل للإنسان أن هذا الفعل من أنفع الأفعال إليه وهو أضرُّه، ويبغِّض له الأوامر الشرعية حتى يُخيِّل إليه أنها كأثقال الجبال عليه.

ومنه الوعد بالفقر:

قال رسول الله ﷺ:

«ما يُخرِج رجل شيئا من الصدقة حتى يفُكَّ عنها لَحيَي سبعين شيطانا»[١٠] .

قال المناوي:

(لأن الصدقة على وجهها إنما يُقصَد بها ابتغاء مرضاة الله، والشياطين بصدد منع الإنسان من نيل هذه الدرجة العظمى، فلا يزالون يأبون في صده عن ذلك، والنفس لهم على الإنسان ظهيرة، لأن المال شقيق الروح، فإذا بذله في سبيل الله، فإنما يكون برغمهم جميعا، ولهذا كان ذلك أقوى دليلا على استقامته وصدق نيته ونصوح طويته، والظاهر أن

(١٠) فيض القدير ٥/٥٠٤.

ذكر السبعين للتكثير لا للتحديد كنظائره)[١١] .

الشيطان إذن سيزين الفقر في عينيك ويُريكَه أقرب إليك من شراك نعلك، خاصة كلما أوشكت على نفقة أو مددتَ يدك بمعروف، وسيقذف في قلبك أنك ستحتاج إلى ما أنفقت.

قال رسول الله ﷺ:

«يا معشر التجار! إن الشيطان والإثم يحضران البيع، فشوبوا بيعكم بالصدقة»[١٢] .

في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس: اذهب، استفزز، وأجلب، وشاركهم، وعدهم، وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها، بل للتهديد وإظهار عجز الشيطان عن الوقوف في وجه الدعوة وصد الناس عنها، وكأنَّ الحق سبحانه يقول له:

- افعل ما بدا لك ..
- كِد وامكر ..
- دبِّر وخطِّط ..
- فكل مكرك عليك .. وكل خططك ضدك .. وسيفك قاتلك .. وسهمك راميك ..
- ولن توقف دعوة الله مهما فعلت وحاولت[١٣] ، وهي طمأنة للمؤمنين أنه لن يضرهم كيد ما داموا مستمسكين بعهد الله.

---

(١١) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن بريدة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨١٤.

(١٢) صحيح: رواه الترمذي عن قيس بن أبي غرزة كما في صحيح الجامع رقم: . ٧٩٧٣

(١٣) قال الزجاج: إذا تقدم الأمرَ نهيٌ عما يؤمر به، فمعناه التهديد والوعيد، تقول للرجل: لا تدخُلَنَّ هذه الدار؛ فاذا حاول أن يدخلها قلت: ادخُلها وأنت رجل، فلستَ تأمره بدخولها، ولكنك تُوعِده وتهدِّده. زاد المسير في علم التفسير.



الفرقة الناجية!

ورحم الله عبد الوهاب عزام الذي حكى قصة الفرقة الناجية والكتيبة الصامدة في وجه إبليس فقال:

وأولاد آدم أغويتُهـــــــــم ... وناديتُ في الأرض أن يفسدوا

ســوى عصبةٍ حِرتُ في أمرها ... وما كان لي بينهـــــــــم مقعد

أتيت إليهـــــم بخيلي ورجلي ... فلم يرهبوني ولم يرعـــــــدوا

وجئتهمُ بخِــــــداع المقال ... ومكر الثعالب فاستأســـــدوا

وصُغْت لهم من نضارٍ عُجولًا ... فلم يأبهـــــــوها ولم يعبدوا

وسُـــــمتهمُ شهوات الحياة ... فما ذللتهـــــــــم وما عُبِّدوا

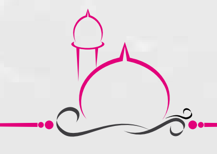
أدور لهم حول حصـن حصينٍ ... من الدين والخُلُق قد شـــيَّدوا

فما لي إلى ســـــاحه مدخل ... وما لي إلى برجـــــه مصعد

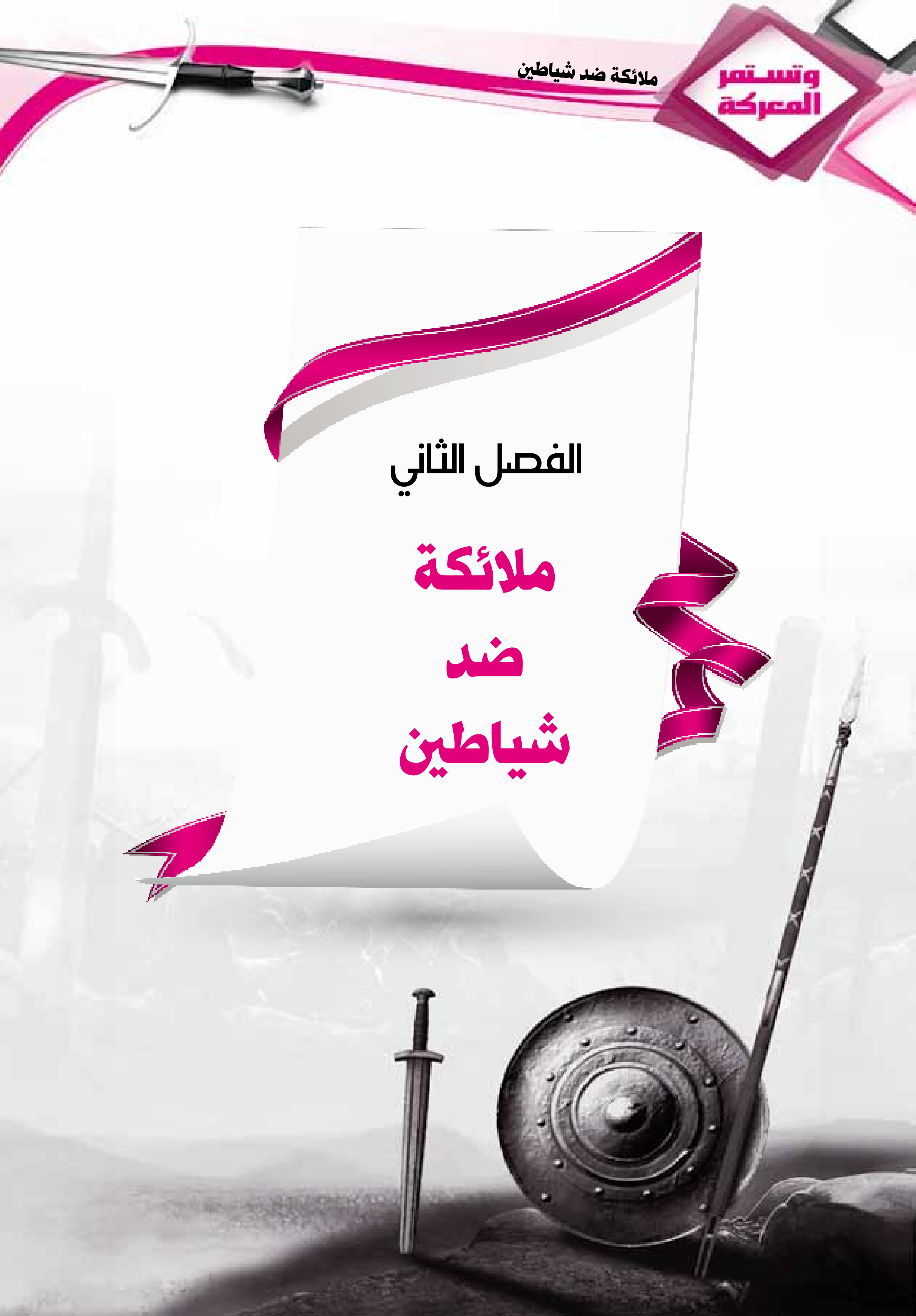
ولم أر في ســــــوره ثلمة ... تُمَدُّ إلى القوم منهـــــــم يد

فأدبرت عن كيدهــــم خائنا ... أعضُّ البنان ولا أحســــــد

جــــزاني أولئك كبرا بكبر ... أبيتُ الســـــجود ولم يسجدوا[١٤]



(١٤) النفحات ٩٨/ ٩٩ مكتبة النور.


وتستمر
المعركة
الفصل الثاني
ملائكة
ضد
شياطين



الفصل الثاني



من رحمة الله بنا أن أمدَّنا بملائكته في مواجهة شياطين الإنسان، فهي حاضرة معنا في كل ساحات القتال.

١. الأصوات

في الحديث:

«إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكا، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا»[١٥].

فالفضاء من حولنا تسرح فيه الملائكة وكذلك الشياطين، ويعلو صوت الديكة ليعلن أن الملائكة تنزلت، ولذا كان النبي ﷺ بالليل إذا سمع الصارخ (الديك) وَثَب. وثب من فراشه لأن الملائكة تنزل في جوف الليل ذاكرة فقام يشاركها وقامت تشاركه، فاحرص على شرف اللقاء ونعمة الاصطفاء، ولا تكن من المحرومين.

لكن الملائكة تشارك كذلك المسلم الجهاد، ففي العدوان على غزة كان صوت الديكة عاليا في أكثر من مشهد يؤنس وحشة المجاهدين ويعلن تأييد رب العالمين، ويبشِّر بتنزل الملائكة مددا يأخذ عنهم الأبصار، ويبث السكينة في قلوبهم حين خذل المسلمون إخوان العقيدة.

٢. الأكل والمبيت:

عن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي ﷺ يقول:

(١٥) صحيح: رواه أحمد والشيخان وأبوداود والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦١١.

«إذا دخل الرجل بيته فذَكَر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» (١٦) .

وأما المفرِّط فإذا دخل بيته نسي الله ولم يذكره ليستضيف الشيطان في بيته، ولا يدرك أنه هو الذي أعطاه مفتاح الدخول وتأشيرة الإقامة يزوره وقت ما شاء، ويُضِلُّه ويُضِلُّ من معه من أهله وصحبه.

٣. النوم:

المحارب اليقظ يتوضأ قبل نومه يحمي بذلك نفسه من عدو متربص، ويتهيَّأ في الوقت نفسه لاستقبال ملَك كريم يشاركه فراشه ويحوطه برعايته..يدعو له طيلة نومه، فمَن هذا الذي يزهد في هذا الفضل العظيم بوضوء لا يستغرق دقيقة؟! **واسمع البشارة:**

قال رسول الله ﷺ:

«طهِّروا هذه الأجساد طهَّركم الله، فإنه ليس عبد يبيت طاهرا إلا بات معه ملك في شعاره لا ينقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك فإنه بات طاهرا» (١٧) .

والشعار: هو الثوب الذي يلي الجسد مباشرة، والدثار هو الذي فوقه، تذكر أن دعاء الملك لا يُرد أبدا لأنه لم يعص الله أبدا.

وعندما تقوم من نومك يرمقك مَلَك كريم،ويكون في شرف استقبالك ليقودك إلى المحراب، ويشتاق إلى يصلي معك ويستمع إلى قراءتك، وبقي عليك أن تتطهَّر لملاقاته، وليس أطهر من سواك يطيِّب فمك ويجهِّزك للصلاة، ولهذا أمر **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه أصحابه يوما بالسواك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ:

(١٦) صحيح: صحيح ابن ماجة رقم: ٣٢٨٦ .
(١٧) حسن: رواه الطبراني عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٣٦.

«إن العبد إذا تسوَّك، ثم قام يصلي قام الملك خلفه، فيستمع لقراءته، فيدنو منه أو كلمة نحوها حتى يضع فاه على فيه، فما يخرج من فيه شيء من القرآن إلا صار في جوف الملك، فطِّهروا أفواهكم للقرآن» [١٨] .

هما طهارتان: طهارة حسية بالسواك، وطهارة معنوية بالقرآن.

وقد تنسى سواكك يوما فتؤذي ملكك بريح فمك، ولذا كان أُبيّ، رحمه الله، يضع سواك بجوار مرآة الحمام وقد علَّقه في خيط، ليكون أول ما يفعله مع وضوئه استعدادا لقيام الليل أن يستاك، فلا ينسى هذه السنة، ويتجهَّز للقاء الملائكة، وبها أوصيكم لينال أُبيٌّ أجوركم بعد موته لا ينقص من أجوركم شيء!!

لكن أين الشيطان من كل هذا؟!

الشيطان يبيت معك في الغرفة نفسها على سريرك، بل وعلى أنفك!!

قال رسول الله ﷺ:

«إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاثا، فإن الشيطان يبيت على خيشومه» [١٩] .

قال **ابن حجر**:

(ظاهر الحديث أن هذا يقع لكل نائم، ويحتمل أن يكون مخصوصا بمن لم يحترس من الشيطان بشيء من الذكر، ويحتمل أن يكون المراد بنفي القرب هنا أنه لا يقرب من المكان الذي يوسوس فيه وهو القلب، فيكون مبيته على الأنف ليتوصل منه إلى القلب إذا استيقظ، فمن استنثر منعه من التوصل إلى ما يقصد من الوسوسة، فحينئذ فالحديث متناول لكل مستيقظ) [٢٠] .

---

(١٨) حسن صحيح: صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢١٥.
(١٩) صحيح: متفق عليه كما في مشكاة المصابيح رقم: ٣٩٢.
(٢٠) فتح الباري ٦/ ٣٤٣.

أنت بذكر الله قبيل نومك تمنع الشيطان من التسلل إلى قلبك يا حارس القلب، فاحرس أغلى ما تملك من عدو متربِّص .. **فهو الهدف رقم واحد لكل شيطان ..**

(**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد**)[٢١] .

وهي عقد حسية تحمل معنى الحيلولة بينك وبين الخير، وتستهدف حرمانك من الخير والبركة المرتبطان باليقظة، وتركك في السكرة والغفلة، وإلقاءك في بحر كسلٍ يغرق إيمانك، ويقضي على يقظة قلبك سائر يومك.

٤. التعاقب:

قال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»[٢٢] .

قال **النووي**:

(«فأسلم» برفع الميم وفتحها ، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه : أسلمُ أنا من شرِّه وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلَمَ من الإسلام، وصار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير، واختلفوا في الأرجح منهما، فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع، ورجَّحَ القاضي عياض الفتح وهو المختار لقوله : فلا يأمرني إلا بخير)[٢٣] .

لكن ما علاقة الملك بالشيطان؟

وهل يجتمعان عندك في وقت واحد؟!

---

(٢١) صحيح: رواه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٨١٠٧ .
(٢٢) رواه مسلم كما في مشكاة المصابيح رقم ٦٧.
(٢٣) النووي ١٩٥/٩.

وهل لك دور في استجلاب أي منهما إلى جوارك؟!

اسمع الإجابة من ابن القيِّم حين قال:

(فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهارا كله، وآخر بضده) (٢٤) .

الصالحون الأقوياء في دين الله تلازمهم الملائكة، فحياتهم نهار، وأفعالهم وأقوالهم أنوار، يهتدي بها من ضلَّ أو احتار، أما المفسدون فتلتزمهم مردة الشياطين، وتأخذ بأيديهم من صغيرة إلى كبيرة، وتستدرجهم من هفوة إلى هلكة، فحياتهم ظلامٌ يتخبطون فيه، فيسقطون في هوَّة سحيقة من المهالك والمعاصي، وطول نهارك وليلك أو قصرهما بيديك وحدك بحسب جدك أو كسلك. فاللهم اجعل قلوبنا نهارا بإقبالها على طاعتك وأقصِر ليلها وظلامها ببعدها عن محارمك.

والملائكة تتفاوت فضلا وشرفا وقوة وضعفا، وكما أنَّ أفضل الصحابة من شهد بدرا، فإنَّ أشرف الملائكة وأعلاهم قدرا من شهد بدرا، وكلما قوي إيمانك قوي الملك الذي يؤيدك الله به كما قال ذلك ابن تيمية:

(فمن كان إيمانه أقوى من غيره كان جنده من الملائكة أقوى، وان كان ايمانه ضعيفا كانت ملائكته بحسب ذلك) (٢٥) .

(٢٤) إغاثة اللهفان، ص: ١٠٨.
(٢٥) النبوات، ص: ٤١٦.



٥. الذِّكر

وكما تبحث الشياطين عن أهدافها، فكذلك الملائكة، فمنها طلائع الاستطلاع التي وظيفتها أن تبحث عن هدفها، ففي الحديث:

«إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس، يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجاتكم» (٢٦) .

فهي تظل تبحث عن نقاط النور على وجه الأرض التي تشِعُّ وسط الظلمة، فإذا رأتها من بعيد هبطت إليها وحفَّتها بأجنحتها، فمرافقة الملائكة غاية بمجالس ذكر تقودها، بل ويتعدى حبك لنفسك إيثارك لغيرك، فتقلب مجالس اللغو إلى مجالس ذكر ليعم الخير من حولك.

أخي .. معك ولي وعليك عدو، وبيدك أن تدني أيا منهما إليك، وتختار إحدى الصحبتين، ولهذا قال رسول الله ﷺ:

«ما من راكب يخلو في مسيره بالله وذكره إلا كان ردِفه ملك، ولا يخلو بشعر ونحوه إلا كان رَدِفه شيطان» (٢٧) .

وكأن للذنب رائحة تطرد الملائكة وتجذب الشياطين، وللحسنة عطر جاذب للملائكة يطرد الشياطين، وقد لمح **ابن القيم** هذه المطاردة بين الملك والشيطان على إثر ذكر العبد أو غفلته، فشرح لنا كيف يبسط الشيطان سلطانه على القلب في ظل غيبة المَلك عنه، فقال رحمه الله:

(تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى عنك الولي، فلا تظُنَّ أن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض) (٢٨) .

---

(٢٦) صحيح: رواه أحمد والشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٧٣.
(٢٧) حسن: رواه الطبراني عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٠٦ .
(٢٨) الفوائد ص ٦٨.

بيدك أن تختار في خلوتك إلهاما من ملك أو إغواء من شيطان..

فخلوتك خير أو شر!!

بوسعك أن تصنع منها شرابا حلوا أو ملحا أجاجا..

أن تصرع فيها شيطانك أو يصرعك شيطانك.

أن ترقى بها إلى معالي الدرجات أو تهوي بها في أسفل الدركات.

من ذكر الله خاليا ..

أو استمع لذكر ..

في خلوته وغياب الناس عنه لم يزل تحت راية الملك ..

وصان حق الجوار حين أضاعه غيره.

وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران؟!

قال بعض الصالحين يقول: إن معكم من لا يفارقكم، فاستحيوا منهم وأكرموهم، ولا ألأم ممن لا يستحي من الكريم عظيم القدر، ولا يُجِلُّه ولا يوَقِّره، وقد نبَّه سبحانه على هذا بقوله : ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾[الانفطار: ١٠ - ١٢] .

أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجِلّوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يعصي الله بين يديه، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟!



بطولات ميدانية

قال **محمد بن الفضل**:

(وما أمليتُ على ملكي ثلاثين سنة شيئا، ولو فعلت ذلك لاستحييت منهما)[29].

٦. القضاة

قال رسول الله ﷺ:

«الله مع القاضي ما لم يجُر، فإذا جار تخلى الله عنه ولزِمه الشيطان»[30].

إن الوقوع في الذنب يُدني الشيطان من العبد، فإذا تتابع الذنب لزم الشيطان العبد ولم يفارقه، بعد أن استأنس بخبثه وسوء عمله، فيظل له قرينا حتى يدخل معه النار، ولذا لا عجب أن يظل القاضي الجائر معروفا بظلمه لا يؤثر عنه عدل في قضية واحدة، لأنه حليف الشيطان رفيق العصيان.

---

(٢٩) صفة الصفوة ٤/ ١٦٥ ط دار المعرفة.

(٣٠) حسن: رواه الترمذي عن عبدالله بن أبي أوفى.
انظر حديث رقم: ١٢٥٣ في صحيح الجامع.

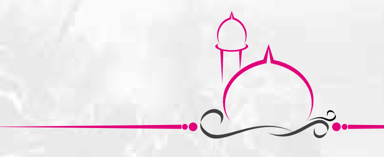


بطولات ميدانية

حكي العلامة ابن عابدين في حاشـيته (رد المختار على الدر المختار) عن أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة وقاضي القضـاة في عصر هارون الرشيد، وكان قد تقاضى عنده الخليفة هارون الرشـيد ونصراني في خصومة وقعت بينهما، فقضى أبو يوسف للنصراني على الخليفة، ولما أدركته الوفاة قال:

(اللهم إنك تعلم أني لم أمل إلى أحد الخصمين حتى بالقلب إلا في خصومة نصراني مع الرشيد؛ لم أسَوِّ بينهما، وقضيتُ على الرشيد).

ثم بكى! [٣١].



(٣١) رد المحتار على الدر المختار ٥/ ٣٧٥-٣٧٦- ابن عابدين- ط دار الفكر-بيروت.







٧. لمَّة ملَكية وأخرى شيطانية:

قال **عبد الله بن مسعود** ﷺ:

(لابن آدم لمتان:

لـمَّة مِن الملك، ولمة من الشيطان، فأما لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، وتطييب بالنفس.

وأما لمة الشيطان، فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وتخبيثٌ بالنفس) [٣٢] .

قال **الغزالي** في شرح رائع لقول **ابن مسعود**:

(فالخاطر المحمود يسمى إلهاما، والمذموم يسمى وسواسا.

والخاطر الداعي للخير يسمى ملَكا، والداعي للشر شيطانا.

واللطف الذي به تهيأ القلب لقبول لمة الملك يسمى توقيفا، واللطف الذي به تهيأ القلب لقبول وسواس الشيطان إغواءا وخذلانا.

والملك عبارة عن خلق خلقه الله شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالمعروف، والشيطان عبارة عن خلق شأنه الوعيد بالشر والأمر بالفحشاء.

فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان.

والقلب متجاذَب بين الشيطان والملك.

فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان لله أمضاه، وما كان من عدوه جاهده) [٣٣] .

هذا مختصر قصة صراع الخير والشر على الإنسان، وفي الحديث وصفٌ لشكل الصراع

(٣٢) الزهد والرقائق لابن المبارك ١/ ٥٠٣- دار الكتب العلمية – بيروت وقد روي مرفوعا في الترمذي والنسائي وابن حبان كما في ضعيف الجامع رقم: ٤٧٧٣.

(٣٣) فيض القدير ٢/ ٤٩٩ (بتصرف).

الدائر بين الملائكة والشياطين على قلب كل إنسان.

وهذه فروق هامة للتمييز بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان:

- **ما كان موافقا لمرضاة الله وما جاء به رسوله فهو من المَلَك، وما كان غير موافق لمرضاته فهو من الشيطان.**
- **ما أثمر إقبالا على الله وتوبة وذكرا له فهو من الملك، وما أثمر ضد ذلك فهو من الشيطان.**
- **ما أورث أُنْسا ونورا في القلب وانشراحا في الصدر فهو من الملك، وما أورث ضد ذلك فهو شيطاني.**
- **ما أورث ميلا إلى الصالحين ومودة المتقين فهو من الملك، وما أورث نفورا من الأبرار على حساب الفُجَّار فهو من الشيطان.**

ولك دور مهم في تحديد من تكون له الغلبة، فإن الإلهام الملكي يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي استنارت بنور الله، فيميل إليها الملك لأنه طيب طاهر لا يجاور إلا طاهرا يناسبه، وأما القلب المظلم بدخان الذنوب وسواد الشهوات والشبهات، فإن إغواء الشيطان إليه أقرب من لمة الملك.

٨. الوحي الشيطاني والوحي الملائكي:

من صور الوحي الشيطاني ما أشار إليه الحق في قوله:

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] حيث أوحي الشيطان إلى المشركين ليحتجوا على تحريم أكل الميتة بالقول: يا محمد أتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتل الكلب والصقر حلال، وما قتله الله حرام !! فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

أتى أناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله! أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٨] – إلى قوله – ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١] (٣٤) .

وهذه المجادلة قال فيها قتادة:

(جادلهم المشركون في الذبيحة فقالوا :أما ما قتلتم بأيديكم فتأكلونه، وأما ما قتل الله فلا تأكلونه! يعنون: الميتة. فكانت هذه مجادلتهم إياهم) (٣٥) .

ووحي الشيطان هو صورة من صور الإغواء والإضلال.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي زميل قال:

كنت قاعداً عند ابن عباس وحجَّ المختار بن أبي عبيد، فجاء رجل ،فقال: يا أبا عباس! زعم أبو إسحق أنه أوحي إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صدق! فنفرت، وقلت: يقول ابن عباس: صدق!

فقال ابن عباس:

(هما وحيان! وحي الله ووحي الشيطان، فوحي الله إلى محمد، ووحي الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾) (٣٦) .

رُبَّ متحدِّث عن تجربة، كان قد خاضها ثم حُرِم منها، فهو يُحسِن وصف الماضي لا الحال! فاللهم عفوَك وسترك الجميل!

---

(٣٤) جامع البيان في تأويل القرآن ١٢/ ٨١- أبو جعفر الطبري – مؤسسة الرسالة.
(٣٥) جامع البيان في تأويل القرآن ١٢/ ٨١ .
(٣٦) الدر المنثور ٣/ ٣٤٨.



الفصل الثالث

معارك الشيطان



الفصل السابع



معارك الشيطان

المعركة الأولى: الحسد

الحسد أول ذنب عُصِي الله به في السماء، وأول ذنب عُصِي الله به في الأرض؛ فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل هابيل.

قال ابن المقفع:

(الحسد والحرص دعامتا الذنوب؛ فالحرص أخرج آدم من الجنة، والحسد طرد إبليس عن جوار الله) [٣٧] .

ولذا كان الحاسد شبيه إبليس ومؤاخيا للشيطان في عمله. قال ابن القيم:

(الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس، وزوال نعم الله عنهم، كما أنَّ إبليس حسد آدم لشرفه وفضله،وأبى أن يسجد له حسدًا، فالحاسد من جند إبليس)[٣٨] .

ولذا كانت الاستعاذة بالله من الحاسد مقرَّرا يوميا على كل مؤمن حيث يحافظ على قراءة سورة الفلق عدة مرات كل يوم.

قال الرازي معلِّقا على هذه السورة وموضع الحسد فيها:

(كما أنَّ الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة، ولهذا السبب ختم الله مجامع الشرور الإنسانية بالحسد، وهو قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ كما ختم مجامع الخبائث الشيطانية بالوسوسة) [٣٩] .

---

(٣٧) دُرَرُ الحِكَم لأبي منصور الثعالبي ١/ ٤٧ –دار الصحابة – طنطا.
(٣٨) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٤
(٣٩) مفاتيح الغيب ١/ ٢٢٦



أولاً: تعريف الحسد

الحسد هو تمني زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، وهو ذنب قلبي وخطيئة تأكل حسنات المرء من حيث لا يشعر!

قال القاري:

(فإن الحسد باعتبار ما ينتج في حقِّ المحسود من ارتكاب السيئات، يأكل الحسنات: أي يُفني ويذهب طاعات الحاسد كما تأكل النار الحطب؛ لأنَّ الحسد يُفضي بصاحبه إلى اغتياب المحسود ونحوه، فيذهب حسناته في عرض ذلك المحسود، فيزيد المحسود نعمة على نعمة، والحاسد حسرة على حسرة) (٤٠).

ثانياً : ما هدف الشيطان من هذه المعركة؟

١- خنق الإيمان في قلب العبد

قال رسول الله ﷺ:

«ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد» (٤١).

لأن الحسد اعتراض على قدر الله، وهو ما يناقض كمال الإيمان.

فيشتكي قلب العبد:

لماذا أعطيت فلان ولم تعطني، ووسَّعت عليه وحرمتني؟!

وفي الحديث:

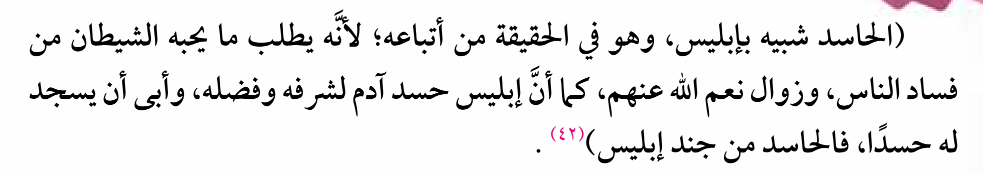
«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، والحسد نقيض ذلك.

ولهذا كان الحسد شديد الارتباط بالشيطان. قال ابن القيم:

---

(٤٠) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/ ٣١٥٥- علي القاري - ط دار الفكر

(٤١) حسن: رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم:٧٦٢٠.



(الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنَّه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس، وزوال نعم الله عنهم، كما أنَّ إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدًا، فالحاسد من جند إبليس)[٤٢] .

٢- ملأ القلب بالألم والحسرة

من أهداف الشيطان أن يحزُن الذين آمنوا، فتتألم بحسدك في الدنيا، وتتعذب به حين تتحول حياتك إلى فصول من الغمِّ والنكد، فتتحسَّر عند رؤية ثوب النعمة على غيرك، وتلعن سوء حظك وقلة نصيبك.

ولذا يعيش الحاسد في تعب ولو كانت حوله كل وسائل الراحة، وفي فقر ولو كان في غاية الغنى.

٣- العداوة والبغضاء:

قال رسول الله ﷺ:

«دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء»[٤٣].

هو إذن داءٌ متوارث عبر الأمم..

أوقعنا الشيطان فيه ..

وأوقع فيه غيرنا على مرِّ العصور والأزمان ..

هو داء مزمن، وللشيطان فيه قصب السبق، والخبرة الطويلة.

لكن ما علاقة الحسد بالبغضاء؟!

حين يكتشف الناس بينهم حسودا فسرعان ما يكرهوه، وبعد قليل يحذروه حتى

---

(٤٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٤.

(٤٣) حسن: رواه أحمد والترمذي عن الزبير كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٦١.

يتقوا شرَّه وأذاه وينجوا من حسده، وهذا طبيعي أن يكرهوا من يتمنى زوال النعمة عنهم، فأي طعمٍ للحياة إذا كنت كارها ومكروها، وحاسدا ومحسودا.

وقد لمح **الشافعي** أن الحسد دلالة على انخفاض قدر صاحبه وشعوره أنه دون المحسود، فقال رحمه الله:

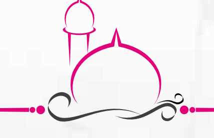
(ما نظر الناس إلى شيء هم دونه إلا بسطوا ألسنتهم فيه).

قال **أبو نعيم** في الحلية: **صدق ـ رحمه الله ـ وهذا اليوم في الناس كثير**[٤٤] .

ثالثًا: ساحات المعركة

نِعَم ربنا سبحانه وتعالى لا تحصى:

المال والجمال والحسب والنسب والعلم والعبادة والصحة وغيرها، وكل نعمة من النعم هي عُرْضة للحسد.



(٤٤) حلية الأولياء ٩/١١٧.

الأسلحة المضادة!

١- انظر إلى من هو أسفل منك:

قال رسول الله ﷺ:

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[٤٥].

فإن النظر إلي من هو أقل منك يساعدك على رؤية نعمة الله عليك أي ترى الجوانب المضيئة في حياتك، والحسد يعمي بصيرتك عن نعم الله عليه، فلا تراها عليك وتراها على غيرك.

٢- الرضا:

أن تثق أن الله لا يقدر لك إلا الخير لك في دينك ودنياك ..

كان **عمر بن عبد العزيز** يقول:

(لقد تركَتني هؤلاء الدعوات، وما لي في شيء من الأمور كلها أرب إلا في مواقع قدر الله، وكان كثيرا ما يدعو:

اللهم رضِّني بقضائك، وبارِك لي في قدرك، حتى لا أحُبَّ تعجيل شيء أخَّرته، ولا تأخير شيء عجَّلته) [٤٦].

وقال:

(ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل)[٤٧].

---

(٤٥) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة صحيح الجامع: ١٥٠٧
(٤٦) مدارج السالكين ٢/ ٢١٥.
(٤٧) مدارج السالكين ٢/ ٢١٥.

ولذا اختفت كلمة الأمانيُّ من قاموس الرجل الصالح الراضي يونس بن عبيد فقال -ويا للعَجَب مما قال:

(ما تمنَّيتُ شيئا قط)[48] .

يقول ابن القيم وهو يعيد صياغة مفهوم كرامة العبد على الله في عقلك ووجدانك:

(يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتَّعه بها، ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونا على طاعته كان مبعدا له عن مرضاته، قاطعا له عنه ولابد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤه له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة)[49] .

وصدق القائل:

العبد ذو ضجرٍ والربُّ ذو قَدَر ... والدهر ذو دُوَل والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختيار خالقنا ... وفى اختياره سواه اللَّوْم والشوم

---

(٤٨) مدارج السالكين ٢/ ٢١٥.

(٤٩) مدارج السالكين ١/ ١٠٠، ١٠١.

بطولات ميدانية

قال الإمام الجليل أبو حازم:

(الدنيا شيئان: فشيء لي، وشيء لغيري، فما كان لي لو طلبتُه بحيلة من في السموات والأرض لم يأتني قبل أجله، وما كـان لغيري لم أرجُه فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، يمنع رزقي من غيري كما يمنع رزق غيري مني، ففي أي هذين أُفني عمري)[٥٠] .

٣- فضل سلامة الصدر:

في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس ﷺ قال:

كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ فقال:

«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي.

(٥٠) حلية الأولياء ١٠/ ١٠٤.



فعلت؟ قال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلَّب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبَّر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبد الله .. إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثَمَّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ، فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما ولَّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»[٥١] .

لذا فأفضل الناس ليسوا أصحاب العبادات بل من أثَّرت فيهم هذه العبادات حتى طهرت قلوبهم، والدليل القولي أسوقه بعد الدليل العملي السابق وهو قول الحبيب ﷺ:

«أفضل الناس كل مخموم القلب صدوق اللسان».

قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟

قال:

«التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غِلَّ ولا حسد»[٥٢] .

---

(٥١) مسند أحمد، رقم: ١٢٦٩٧. إسناده صحيح على شرط الشيخين.وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠٥٥٩) ومن طريقه أخرجه البزار: (١٩٨١- كشف الأستار) والبيهقي في الشعب: (٦٦٠٥) وابن عبد البر: ٦/ ١٢١-١٢٢ والبغوي: (٣٥٣٥). وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: (٨٦٣) من طريق عبد الله بن المبارك، عن معمر بهذا الإسناد.

(٥٢) صحيح: رواه ابن ماجة عن عبد الله بن عمر كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٩٤٨.

بطولات ميدانية

ذكر الإمام الذهبي أن أبا إســــحاق (الشيرازيّ) نزع عمامته- وكانت بعشرين دينارا- وتوضَّأ في دجلة، فجـــــاء لصٌّ فأخذها، وترك عمامة رديئة بدلها، فطلع الشيخ فلبســـها، وما شعر حتى سألوه وهو يدرِّس، فقال:

(لعلَّ الذي أخذها محتاج)[٥٣] .

٤- الحسد المفروض

في الحديث:

«لا حسد إلا في اثنتين:

رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ..

ورجلٌ آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»[٥٤].

(٥٣) نزهة الفضلاء: ٣/ ١٣٠٧.

(٥٤) صحيح: رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر كما في صحيح رقم: ٧٤٨٧.





هل المال الذي يمكن أن يضيع بخسارة في تجارة أو بورصة أو تفقد الاستمتاع به أما بكِبَرَ في السن أو بمرض عضال .. هل يصلح أن يكون مادة للحسد؟!

هل الشهرة التي تتحول بمرور الوقت لقيد ثقيل على حرية الإنسان، وتُشعِرك أنك مراقبٌ في كل تصرفاتك وحركاتك .. هل تستحق أن تُحسَد؟!

هل الجمال الذي ينمحي بالكبر والشيخوخة .. هل هذا الجمال يستحق أن يُحسد؟!

لا يصلح أن يُحسَد على الحقيقة إلا القرآن والمال المنفَق في سبيل الله لأن هذا الذي يبقى ولا يزول حتى تلقى الله..

٥- الدعاء بالبركة:

في حديث الوقاية من الحسد:

«إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يُعجِبه، فليدْعُ له بالبركة، فإنَّ العين حق»[(٥٥)].

وهذا مما يحمي المحسود، ويهذِّب قلب الحاسد.

فمن منا يفعله؟! ويقول:

اللهم زِدْ وبارك..

اللهم بارِك له في ماله ..

(٥٥) صحيح: رواه الطبراني عن عامر بن ربيعة، كما في الكلم الطيب، رقم: ٢٤٣.

في ذريته .. ولو لم تقتنع! ولو خالفك قلبك..

قلها ولو كارها، فهذه الأدوية كما ...

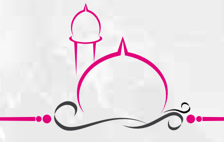
يقول **أبو حامد الغزالي** :

(مُرَّة على القلوب جدا، ولكن النفع في الدواء المُرِّ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء)[٥٦] .

بطولات ميدانية

قال **محمد بن سيرين**:

(ما حسدتُ أحدا على شيء من الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى النار)[٥٧] .



(٥٦) إحياء علوم الدين ٣/ ١٩٩.

(٥٧) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١/ ١٣٤- أبو حاتم الدارمي البُستي- دار الكتب العلمية .







المعركة الثانية: الغضب

مرَّ النبي ﷺ بقوم يصطرعون، فقال:

ماهذا؟

قالوا: **يا رسول الله! هذا فلان الصريع؛ ما يصارع أحداً إلا صرعه**، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أدُلُّكم على مَن هو أشدُّ منه؟** (يعني: الصَّريعَ) **رجل ظلمَه رجل، فكظم غيظه؛ فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه،** (وفي رواية) : **الذي يملك نفسه عند الغضب**» (٥٨) .

الغضب أهم مداخل الشيطان، وهو غول العقل.

قال **ابن القيم**:

(**وأما الغضب فهو غول العقل يغتاله كما يغتال الذئب الشاة، وأعظم ما يفترسه الشيطان من العبد عند غضبه وشهوته**) (٥٩) .

الغضب ضرب من الجنون ..

فالعاقل يطيش عقله ..

المتدين يضيع تدينه ..

الحكيم تضيع حكمته ..

بل ونسمع عن كثير من الحوادث التي لا يتصورها عقل سليم..

ابن قتل أباه ..

---

(٥٨) أخرجه البزار في مسنده كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٢٩٥ .

(٥٩) إعلام الموقعين ٣/ ٤٧.

زوج طلَّق امرأته ..

أخ هجر أخاه ..

جار خاصم جاره ..

خليلان متصافيان يتحولان في لمح البصر إلى عدوين لدودين..

وكل هذا في لحظة غضب!

في لحظة ..

تتهدم علاقات شيَّدها أصحابها في سنين!

في لحظة!

يتشرد أولاد في طلاق بين زوجين..

غير ما قد يصيبك من أمراض كارتفاع الضغط والسكر، والغاضبون أكثر الناس عرضة للأزمات القلبية بسبب الانفعالات العصبية ...

وأول ما ينصحك به الطبيب هو عدم التعرض للانفعالات، وإلا تعرَّضت لانتكاسة ..

هذا عن الآثار الدنيوية..

يعني أنه سلاحٌ مدمِّر لجسمك .. لدنياك ..

هذا غير أنه كذلك سلاح فعَّال في يد الشيطان يدمِّر به دينك وإيمانك..

دينك وإيمانك!

نعم ..



فإن المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة..

قال ابن القيم:

(ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة، وكان نهاية قوة الغضب القتل، ونهاية قوة الشهوة الزنى جمع الله بين القتل والزنى، وجعلهما قرينين في سورة الأنعام، وسورة الإسراء، وسورة الفرقان، وسورة الممتحنة)(٦٠) .

قوات الإسناد!

وسلاح الغضب معه أسلحة معاونة وكتائب مقاتلة تضاعف تأثيره.

السلاح الأول: الجدال

الجدال يوغر الصدور، ويؤدي الى الغضب والانفعال، والغضب والانفعال جسران إلى المصائب كلها ... قال عبد الله بن الحسين:

(المراء رائد الغضب، فأخزى الله عقلا يأتيك بالغضب)(٦١) .

ولهذا نزع النبي ﷺ هذا السلاح من يد الشيطان، وذلك بحديث جميل يغزو القلوب ويحميها من غزو الشيطان، ويمتلك زمام النفوس قبل العدو، فقال الحبيب:

«أنا زعيم بيت في ربَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحِقًّا»(٦٢) .

تنزع هذا السلاح إذن من يد الشيطان بأن تهرب من ساحة الجدال، وهو هروب الشجعان وفرار الأتقياء لأنه فوَّت الفرصة على عدوك في اصطيادك.

---

(٦٠) زاد المعاد ٢/ ٤٢٤.

(٦١) أخرجه البزار في مسنده، كما في السلسلة الصحيحة، رقم: ٣٢٩٥ .

(٦٢) حسن: رواه أبو داود والضياء، عن أبي أمامة، كما في صحيح الجامع، رقم: ١٤٦٤. قال ابن القيم: فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسن الخلق، والأوسط لأوسطها، وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله. مدارج السالكين ٢/ ٢٩٣.

وعلمك النبي ﷺ إذا وقعت في الفخ أن تتخلص منه وتتحرَّر، وذلك بأن تتوب من الجدال بالباطل، فإن الجدال كثيرا ما يكون هدفه الانتصار للرأي بالحق أو بالباطل، فقال ﷺ:

«تكفير كلِّ لحاء ركعتان»[٦٣] .

السلاح الثاني: المزاح

قد يكون سبب الخصام المزاح، ففي الحديث:

«لا يأخذنَّ أَحَدُكُمْ متاع صاحبه جادًّا ولا لاعبا، وإذا وجد أحدكم عصا صاحبه فليرددها عليه»[٦٤] .

ولهذا حذَّر عمر بن عبد العزيز من التجاوز في المزاح قائلا:

(اتَّقوا المزاح فإنَّها حِمْقَةٌ تورِث ضغينة)[٦٥] .

وتابعه المحدِّث الثقة ميمون بن مهران:

(إذا كان المزاح أمام الكلام كان آخره اللَّطم والشِّتام)[٦٦] .

وقد قيل:

(لكُلِّ شيء بذْرٌ، وبَذْر العداوة المزاح)[٦٧] .

ومن الناس من هو سريع الغضب شديد الانفعال، ومن هو بطئ الغضب سريع الرضا، فهو لا يغضب إلا بمشقة، وسرعان ما يعود عن غضبه، وهذا له البشارة من

(٦٣) حسن: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع : ٦٨٩٢ .
(٦٤) حسن: رواه البخاري عن السائب بن يزيد كما في صحيح الأدب المفرد رقم: ٢٤١.
(٦٥) أدب الدنيا والدين ١/ ٣١٠.
(٦٦) الآداب الشرعية ٢/ ٢١٥.
(٦٧) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ١/ ١٩٢- جمال الدين القاسمي - دار الكتب العلمية.



رسول الله ﷺ:

«من كان سهلا هيِّنا ليِّنا حرَّمه الله على النار» [٦٨] .

وهذا الشخص بعيد عن غضب الله كما روى ذلك **ابن عمر، رضي الله عنهما** أنه سأل رسول الله ﷺ:

ما يباعدني من غضب الله عز وجل؟!

فقال:

«لا تغضب» [٦٩] .

والغضب سلاح شيطاني يستهدف به الشيطانُ النساءَ خاصة، فيدفعها من يسير الغضب إلى كفران العشير، وهو الذي حذَّرهن منه رسول الله ﷺ.

قالت **أسماء بنت يزيد الأنصاريَّة** تُحَدِّثُ أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ في المسجد يومًا، وعصبة من النِّساء قُعودٌ، فألوى بيده إليهنَّ بالسَّلام. قال:

«إياكُنَّ وكُفْران المُنَعَّمين، إيَّاكُنَّ وكُفْران المُنَعَّمين».

قالت إحداهنَّ: **يا رسول الله، أعوذ بالله يا نبيَّ الله من كُفران نِعَم الله.**

قال:

«بلى، إنَّ إحداكُنَّ تطول أيمتها، ويطول تعنيسها، ثُمَّ يُزَوِّجُهَا اللهُ الْبَعْلَ، ويُفيدُها الولد، وقُرَّة العين، ثُمَّ تغضب الغَضْبة، فتُقْسِمُ بالله ما رأَتْ منه ساعة خيرا قَطُّ، فذلك مِنْ كُفْران نِعَم الله عز وجل، وذلك مِنْ كُفْران المُنَعَّمين» [٧٠] .

---

(٦٨) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٨٤.

(٦٩) حسن: رواه أحمد وابن حبان في صحيحه كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٧٤٧.

(٧٠) حسن: أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم: ١٠٤٧، والترمذي: ٢٦٩٧ والطبراني في «الكبير» وحسنه شعيب الأرناؤوط في مسند أحمد رقم: ٢٧٥٨٩.

الأسلحة المضادة!

أو سمِّه إن شئت فن إدارة الغضب، وهي ثمان أسلحة:

١- الاستعاذة

قال سليمان بن صرد رضي الله عنه:

كنتُ جالسا مع رسول الله ﷺ ورجلان يستبان وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه، فقال رسول الله ﷺ:

«إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد؛ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد» (٧١) .

سبحان الله..

شفاء القلب في كلمة!

نزع أخطر أسلحة الشيطان بكلمة!

ردَّه ذليلا محسورا بكلمة!

انسف إذن خطته في الهجوم عليك !

وصدق الحبيب حين قال:

«إذا غضِب الرجل فقال: أعوذ بالله؛ سكن غضبه» (٧٢) .

(٧١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن سليمان بن صرد كما في صحيح الجامع رقم: ٢٤٩١.
(٧٢) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٩٥.



٢- السكوت!

نبهنا النبى ﷺ حين نغضب إلى ضرورة السكوت فقال ﷺ:

«إذا غضب أحدكم فليسكت» [٧٣] .

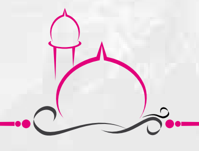
وهو تنبيه صريح للنبى ﷺ لأن الكلمة قد تخرج أثناء غضبك قد يكون فيه تدمير حياة كاملة، وهو ما توصل إليه خبراء الذكاء العاطفي حين طلبوا منك أن تتحكم في مشاعرك 6 ثوان فقط، فمن ملك نفسه هذه الفترة فقد فوَّت الفرصة على انفعاله غير المحسوب.

قال **ابن رجب** عن سلاح السكوت:

(وهذا أيضًا دواء عظيم للغضب؛ لأنَّ الغَضبان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليهِ في حال زوال غضبه كثيرًا من السِّباب وغيره مما يعظم ضَرَرُه، فإذا سكت زال هذا الشرُّ كلُّه عنه.

وما أحسنَ قولَ مُوَرِّق العجلي رحمه الله:

ما امتلأتُ غيظًا قَطُّ، ولا تكلَّمتُ في غضبٍ قطُّ بما أندمُ عليه إذا رضيتُ) [٧٤] .



(٧٣) صحيح: رواه أحمد، عن ابن عباس كما في صحيح الجامع: ٦٩٣.
(٧٤) جامع العلوم والحكم ١/٣٦٦.

بطولات ميدانية

لما شُتِم سلمان الفارسي قال لمن شتمه: (إن خفَّت موازيني فأنا شرٌّ مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرَّني ما تقول)[٧٥].

وشُتِم الربيع بن خثيم فقال للشاتم:

(يا هذا! قد سمع الله كلامك، وإنَّ دون الجنة عقبة إن قطعتُها لم يضرَّني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شرٌّ مما تقول)[٧٦].

٣- لا تدعُ

في حالة الغضب حذار أن تدعوَ على أحد!

أو على نفسك ..

فتُهلِك نفسك أو ولدك!

وما سِرُّ التحذير!

اسمع:

---

(٧٥) الإحياء ٣/ ١٧١ .

(٧٦) الإحياء ٣/ ١٧١ .







قال رسول الله ﷺ:

«لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون» [٧٧].

ووَدَّ الشيطان لو ظفر منكم بمثل هذا، وهي حالة انتحار يودي بها المرء بنفسه بنفسه، ويرتمي بها في أحضان عدوه بدلا من وليه. قال ﷺ:

«لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاء، فيُستجاب لكم» [٧٨].

٤- تذكَّر قدوتك!

من تمام محبتك للنبي ﷺ أن تسأل نفسك: ماذا كان سيفعل لو كان مكانك في كل المواقف، ويضعك ذلك في التصرف الصحيح، وهذه علامة المحبة الحقيقية، وأمارة القرب منه يوم القيامة، وعكس ذلك يباعدك عنه.

أما غضب النبي ﷺ فلا يُعرف إلا أن تنتهك محارم الله –**تعالى**– فعن **عائشة** – **رضي الله عنها** – قالت:

(ما ضرَب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل) [٧٩].

٥- غيِّر مكانك وحالك!

في الوصية النبوية:

---

(٧٧) صحيح: رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أم سلمة كما في صحيح الجامع: ٧٢٦٦.
(٧٨) صحيح: رواه أبو داود عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٦٧.
(٧٩) صحيح: صحيح مسلم كما في مشكاة المصابيح رقم: ٥٨١٨.

«إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع»[٨٠] ..

قال المناوي:

(لأن البعد عن هيئة الوثوب والمسارعة إلى الانتقام مظنة سكون الحدة، وهو أنه يسن لمن غضب أن يتوضأ)[٨١] .

٦- استحضر الثمن!

إن فوزا غاليا وثوابا رائعا ينتظر المنتصر في هذه المعركة، فقد جاءته البشرى على لسان أفضل الخلق رسول الله ﷺ:

«من كظم غيظا وهو قادرٌ على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره من الحور العين يُزوِّجه منها ما شاء»[٨٢] .

وهو ثواب أخر غير الثواب الدنيوي الذي ينتظره من العزة والمهابة:

«وما زاد الله عبدا بعفوٍ إلا عزا»[٨٣] .

ومما يعينك على السيطرة على نفسك الجموحة وميولك العدوانية عند علوك وانتصارك، ولهذا جاء الوزير الصالح رجاء بن حيوة يوما لعبد الملك بن مروان وكلَّمه في العفو عن أسارى ابن الأشعث قائلا:

(إنَّ اللهَّ قد أعطاك ما تُحِبُّ مِنْ الظَّفَر فأعط الله ما يُحِبُّ من العفو)[٨٤] .

---

(٨٠) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن أبي ذر كما في صحيح الجامع: ٦٩٤.
(٨١) فيض القدير ٥/١٥٠.
(٨٢) حسن: رواه الأربعة عن معاذ بن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٢٢.
(٨٣) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في مشكاة المصابيح رقم: ١٨٨٩.
(٨٤) أدب الدنيا والدين ١/٢٦٠.

بطولات ميدانية

أسمع رجلٌ **عمر بن عبد العزيز** كلاما ساءه، فقال **عمر**:

(أردتَ أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا، انصرف رحمك الله) [٨٥].

وبلغ عفوه السحاب، فعفا عن العبد الذي قتله وأعتقه!

عن **مجاهد** قال:

قال لي **عمر بن عبد العزيز**:

ما يقول الناس فيَّ؟!

قلت: **يقولون مسحور.**

قال: **ما أنا بمسحور.**

ثم دعا غلاما له، فقال:

ويحك! ما حملك على أن تسقيني السُّم؟!

قال: **ألف دينار أُعطيتها على أن أُعتَق.**

قال: **هاتِها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد** [٨٦].



(٨٥) أدب الدنيا والدين ١/ ٢٦٠.

(٨٦) تاريخ الإسلام ٧/ ٢٠٣.

٧- لا تعاقب أحدا:

حذار أن تعاقب زوجتك أو أولادك وأنت غضبان، وإلا دمَّرت وأفسدت وأنت تظن أنك تُصلِح.

اهدأ قليلا، ثم فكِّر، عندها أمض العقوبة أو أوقفها.

غضب **عمر بن عبد العزيز** يوما، فاشتد غضبه، وكانت فيه حِدَّة و**عبد الملك** ابنه حاضر، فلما رأوه قد سكن غضبه، قال:

يا أمير المؤمنين!

أنت في قدر نعمة الله عليك، وفي موضعك الذي وضعك الله فيه، وما ولاك الله من أمر عباده يبلغ بك الغضب ما أرى!!

قال: **كيف قلت؟** فأعاد عليه كلامه، فقال:

أما تغضب يا عبد الملك؟

قال:

«**ما يغني عني سعة جوفي إلم أردد فيه الغضب حتى لا يظهر منه شيء أكرهه**» [(٨٧)] .

وتعلَّم الخليفة الخامس الدرس من ابنه، فكان أن كتب إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه [(٨٨)] .

ولهذا كتب **أبو بكرة** ﵁ إلى ابنه وكان بسجستان: **بأن لا تقضِ بين اثنين وأنت غضبان. فإنِي سمعت النبي ﷺ يقول:**

---

(٨٧) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٧٤.
(٨٨) إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٦.

«لا يقضينَّ حكم بين اثنين وهو غضبان»[89] .

حتى قيل قديما:

(إياك وعِزة الغضب، فإنَّها تُفضي إلى ذُلِّ الاعتذار)[90] .

٨- الدعاء:

من جميل الدعاء النبوي:

«وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا».

فحذار أن يدفعك غضبك إلى ظلم أحد أو الانتقاص منه..

ولهذا قيل:

(أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما) .

وقال ربي:

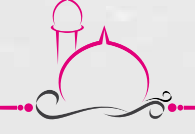
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨] .

من يقدر على هذه؟!

من يستطيع أن يكون هكذا؟!

هنيئا له انتصاره على نفسه ..

هنيئا له حلاوة انتصاره على الشيطان ..



(٨٩) البخاري- الفتح ١٣ / ٧١٥٨ واللفظ له، ومسلم: ١٧١٧.
(٩٠) أدب الدنيا والدين ١/٢٥١.

بطولات ميدانية

قال عصام بن المصطلق:

(دخلت المدينة، فرأيت الحسن بن علي عليهما السلام، فأعجبني سمته وحسن روائه، فأثار مني الحسد ما يجنه صدري لأبيه من البغض فقلت: أنتَ ابن أبي طالب! قال: نعم، فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إليَّ نظرة عاطف رؤوف ثم قال:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠١]،

ثم قال لي: أستغفر الله لي ولك، إنك لو استعنتنا أعنَّاك، ولو استرفدتنا أرفدناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، فتوسم فيَّ الندم على ما فرط مني، فقال: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] أمن أهل الشأم أنت؟!

قلت: نعم.

فقال: شِنْشِنة أعرفها من أخزم[٩١].

حياك الله وبياك وعافاك وآداك، انبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله.

قال عصام: فضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، ووددت أنها ساخت بي، ثم تسللت منه لواذا وما على وجه الأرض أحب إليَّ منه ومن أبيه)[٩٢].

(٩١) مثلٌ يُقال لكل من يأتي بفعل مشين ورثه عن أهله، والشِّنشِنة: تعني عادة أو طبع، وأصل القصة: كان أخزم الطائي رجلا عاقا لوالده، فلما مات أخزم ترك لأبيه ولدين، وذاتَ يوم هبَّ الولدان على جدِّهم فضربوه وأدموه، فتعجَّب أبو أخزم، وقال: شِنشِنة أعرفها من أخزم؛ أي أنهم لم يأتوا بجديد، فقد ورِثوا عن أبيهم هذا الطبع السيء.

(٩٢) تفسير القرطبي ٧/ ٣٠٦ (بتصرف).



المعركة الثالثة: سوء الظن

القصة!

عن **أبي هريرة** ﷺ قال:

أمر رسول الله ﷺ بالصَّدقة، فقيل مَنَع **ابن جميل**، و**خالد بن الوليد**، و**عبَّاس بن عبد المُطَّلب** فقال النَّبي ﷺ:

«ما ينقم ابن جميل إلَّا أنه كان فقيرًا، فأغناه الله ورسوله، وأمَّا خالدٌ: فإنَّكم تظلمون خالدًا، قد احْتبس أدرَاعَهُ وأعتُده في سبيل الله، وأما العبَّاسُ بن عبد المطَّلب، فعمُّ رسول الله ﷺ فهي عليه صدقةٌ ومِثْلُها معها» [٩٣] .

طلبوا من **خالد** زكاة أعتاده ظنا منهم أنها للتجارة، وأن الزكاة فيها واجبة، فقال لهم لا زكاة لكم عليَّ، فقالوا للنبي ﷺ: إن خالدا منع الزكاة، فقال لهم إنكم تظلمونه لأنه حبسها ووقفها في سبيل الله قبل الحول عليها فلا زكاة فيها.

وأما **العباس**، فقد تعجل دفع الزكاة، فقد جاء في حديث آخر في غير مسلم أنه تعجل صدقة عامين، ولذا دافع النبي ﷺ عنها، وذبَّ عنها ظن السوء.

وفي كتاب الله تحذير ثلاثي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢].

وهي ثلاث محرَّمات متوالية، وفيها تصحيح عجيب لسلوك الإنسان.

فقد حرَّم الله سوء الظن الذي لا دليل عليه، ثم حرَّم سلوك السبيل للتأكد منه، وهو التجسس، ثم حرَّم كلام السوء عن المسلم حتى لو علمته وتيقنت به، وذلك بتحريم

---

(٩٣) صحيح: رواه البخاري رقم: ١٤٦٨.

الغيبة، وكل هذا لحماية أفراد المجتمع المسلم من الآفات والشرور.

وبهذا صان الله عِرْضَ المسلم من كل سوء، وذلك بالنهي عن الخوض فيه بالظنِّ، فإن قال الظانُّ: أبحث لأتحقق، جاءه النهي: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ، فإن قال: تحققتُ من غير تجسس فلأتكلم، وجد النهي جازما: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ .

خطورة هذه السلاح الشيطاني أيضا: أن سوء الظن تكسب به السيئات، وبينما حسن الظن تكسب به الحسنات.

وسوء الظن إما أن يكون في محله أو في غير محله، وحسن الظن إما أن يكون في محله أو في غير محله، فإن كان سوء الظن في محله لم يكن لك ولا عليك، وأما إن لم يكن في محله نالك الإثم، وحُسن الظن إن كان في محله أُجِرت، وإن لم يكن في محله ازددت أجرا، فسوء الظن يدور ما بين فوات الأجر ووقوع الإثم، وحسن الظن يدور ما بين الأجر وزيادته، فتعبَّد الله بحسن ظنك بأخيك،فإنك رابحٌ رابح.

كان بكر بن عبد الله المزني يقول:

(عليكم بأمرٍ إن أصبتم أُجِرتم، وإن أخطأتم لم تأثموا، وإياكم وكلَّ أمر إن أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثمتم) قيل: ما هو؟ قال:

(سوء الظن بالناس، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثِمْتم)[٩٤] .

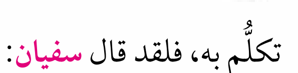
وقال:

(إيَّاك من الكلام ما إن أصبتَ فيه لَم تُؤجَر، وإن أخطأت فيه أثمت، وهو سوء الظنِّ بأخيك)[٩٥] .

وهنالك من فصَّل في خطر الظن الخاطئ، وأنَّه لا يدخل فيه ما يقع في القلب دون

(٩٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢/ ٢٢٥

(٩٥) تهذيب التهذيب والمنح المرعية ١/ ٤٨٤، ٤٨٥



تكلُّم به، فلقد قال **سفيان**:

(الظنُّ الذي يأثم به ما تكلَّم به، فإن لم يتكلم لم يَأثم) [٩٦] .

وذهب البعض إلى أنه يأثم بنفس الظن ولو لم ينطق به.

سوء الظن ولّاد!

شأنه شأن المعصية، لكن توالده أسرع وأخبث، مما ينتج عنه في مجتعاتنا الكثير من القبائح والذنوب والمصائب والعيوب، وذلك كالغيبة والنميمة والبهتان والكذب وقول الزور وشهادة الزور، ومن وراء ذلك الهجر وقطيعة الأرحام وغياب التراحم، وهو هدف رئيس للشيطان في هذه المعركة، وخط إسناد خلفي، يدعمه إذا فشلت خطته الأصلية، كما مرَّ من حديث جابر عن النبي ﷺ:

«إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التَّحْريش بينهم» [٩٧]

قال **الهيثمي**: **(ومن حكَم بِشَرٍّ على غيره بمُجَرَّد الظَّنِّ حمله الشَّيطان على احتقاره وعدم القيام بحقوقه والتواني في إكرامه، وإطالة اللِّسان في عِرضه، وكلُّ هذه مُهْلكاتٌ)** [٩٨] .

والشيطان يوقع بين المسلمين لأنها أسهل طريقة وأسرع وسيلة لنسف حسنات العبد التي تعِب في تحصيلها وتبديد طاعاته، ولذا قال ﷺ :

«إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة» [٩٩] .

ولذا أوصاك **سهل التستري** بقطع الخطوة الأولى على الشيطان فقال في قوله:

---

(٩٦) الآداب الشرعية والمنح المرعية ١/ ٤٥.

(٩٧) صحيح: رواه مسلم وأحمد والترمذي، كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٥١ والمعنى: يسعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن. وهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو في التحريش. أو ظرف لمقدَّر، أي: يسعى في التحريش بينهم. ومنه أن النبي ﷺ نهى عن التحريش بين البهائم أي الإغراء بينها بأن ينطح بعضها بعضا، أو يدوس أو يقتل.

(٩٨) الزواجر عن اقتراف الكبائر: ١/ ١٤٣ – ابن حجر الهيتمي – ط دار الفكر.

(٩٩) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٨٣

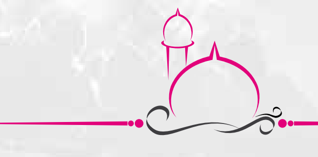
﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ [الحجرات: ١٢] .

(من أراد أن يسلم من الغيبة فليسدَّ على نفسه باب الظنون، فإن من سلِم من الظن سلِم من الغيبة، ومن سلِم من الغيبة سلِم من الزور، ومن سلِم من الزور سلِم من البهتان)[١٠٠] .



قال أبو حامد الغزالي:

(الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خَيَّل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته وهو بذلك فرحان مسرور، يظن أنه يسعى في الدين، وهو ساعٍ في اتباع الشياطين)[١٠١] .



(١٠٠) تفسير سهل التستري ١/ ١٥٠.
(١٠١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٥.



وهي مفاتيح سوء الظن ومقدِّماته:

١- قلب أسود صاحب عمل أسوأ!

وصدق المتنبي القائل:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدَّق ما يعتاده من توهم!

ساءت الأفعال فساءت الظنون، ولو حسنت فعال المرء لحسنت نواياه وظنونه، وهذا مشاهد بين الناس، فالرجل مِنْ كثرة ما اغتاب ونهش في أعراض الناس ظنَّ كل الناس متلطخين بوحل الغيبة، ومن تابع نظره إلى الحرام ظنَّ أن كل من حوله مثله، وآكل الحرام انطمست بصيرة قلبه فلم يبصر في من حوله إلا آكلي الحرام ومن نمت لحوم أجسادهم على الرشوة !

وفي ذلك قال أبو حامد الغزالي:

(مهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو)(١٠٢) .

وانظر صاحب القلب الخبيث حين يتلقف الأخبار من غير تثبت ويندفع في الهجوم بلا روية:

جاء رجل إلى ابن عباس وهو جالس مع بعض أصحابه فقال :

أليس عثمان لم يشهد بدرا ؟!

قال: **نعم.**

(١٠٢) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٨٣.

فقال: أليس لم يشهد بيعة الرضوان؟

قال: نعم.

قال: أليس انهزم يوم أُحُد؟

قال: نعم.

فقال الرجل: الله أكبر.

فعرف ابن عباس أنه أراد النقص؛ فدعاه، قال:

أما يوم بدر؛ فإن النبي ﷺ كان قد خلَّفه على ابنته، وكانت مريضة وقال له: لك أجر واحد ممن شهد، وسهم واحد ممن شهد، وهو بدري بقول الرسول ﷺ.

وأما بيعة الرضوان، فقد كان الرسول بعث عثمان إلى مكة رسولا، ولو كان بينهم في الوادي أعز منه لبعثه، ولما بايعهم ضرب رسول الله بشماله على يمينه، وقال: هذه يد عثمان، وهذه يدي.

أما انهزامه يوم أحد، فقد عفا الله عنه، ولا عيب في شيء عفا الله عنه[١٠٣] .

الحادثة حقيقية .. لكن سوء الفهم والظن كفيل بأن يحرفها عن مسارها الصحيح، ويقلب الخير شرا، والطيب خبثا ولو كان مع أحد المبشَّرين بالجنة!

٢- البيئة الجارفة:

قال بشر بن الحارث الحافي:

(صحبة الأشرار أورثت سوء الظَّن بالأخيار)[١٠٤] .

---

(١٠٣) تفسير السمعاني ١/ ٣٧١.

(١٠٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية ١/ ٤٩.

وهي عدوى تسري ومرض متفشي كما قال **أبو حاتم**:

(إن من أعظم الدلائل على معرفة مَا فيه المرء من تقلبه وسكونه؛ هو الأعتبار بمن يحادثه ويوده، لأن المرء على دين خليله، وطير السماء على أشكالها تقع، وما رأيت شيئا أدل على شيء ولا الدخان على النار مثل الصاحب على الصاحب) (١٠٥) .

٣- التعميم :

من أكبر أسباب سوء الظن أن يتعرَّض الإنسان لحالة معيّنة وموقف محدد، فيقوم بتعميمه على كل الأشخاص، فقد يصطدم المرء بحقيقة مرَّة يكتشفها فجأة في صديق، أو عالم، أو عامل فيفقد ثقته بكل الأصدقاء والعلماء والعاملين، ليصبح لدية شعور التعميم، فالمُعَمِّم كالكفيف لا يرى أمامه، وقد عدَّ النبي ﷺ ذلك أبشع ألوان الكذب، ففي الحديث:

«إن أعظم الناس عند الله فِرْية: لرجلٌ هاجى رجلا، فهجا القبيلة بأسرها» (١٠٦) .

٤- العداوة:

إذا وجدت من يتهم أحدا بسوء، فاسأل نفسك أولا:

هل بينهما عداوة وحسد؟!

فإن وجدت بينهما عداوة وحسد، فلتسقط كلامه ولتتجاوزه إلى غيره، فقد اغتنم الشيطان غيظ قلبه لينفثه كلاما غليظا ولفظا جارحا في حق من يعادي.

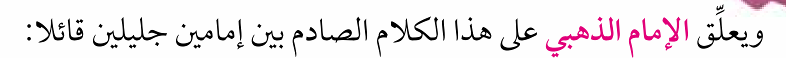
بلغ **ابن أبي ذئب** أن مالكا لم يأخذ بحديث: (**البَيِّعان بالخيار**).

فقال: **يُستتاب، فإن تاب، وإلا ضُرِبَت عنقه.**

---

(١٠٥) روضة العقلاء ١/ ١٠٨.

(١٠٦) صحيح: رواه ابن ماجة والبيهقي عن عائشة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٧٦٣.

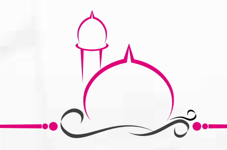


ويعلّق **الإمام الذهبي** على هذا الكلام الصادم بين إمامين جليلين قائلا:

(فكلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعوَّل على كثير منه، فلا نقصت جلالة مالك بقول ابن أبي ذئب فيه، ولا ضعَّف العلماء ابن أبي ذئب بمقالته هذه، بل هما عالما المدينة في زمانهما -رضي الله عنهما) (١٠٧) .

ولعل من أسباب العداوة حب الرئاسة الذي يصطاد به الشيطان القلوب الغافلة عبر فخ تصيد أخطاء الآخرين، ولذا قال **الإمام أحمد لسفيان**:

(حب الرياسة أعجب إلى الرجل من الذهب والفضة، ومن أحبَّ الرياسة طلب عيوب الناس أو عاب الناس أو نحو هذا) (١٠٨) .



(١٠٧) سير أعلا النبلاء ٧/ ١٤٢-١٤٣.
(١٠٨) الآداب الشرعية ٢/ ٢٤١.



الأسلحة المضادة

وأفضل علاج لأمراض القلب بصفة عامة هو التضاد كما ذكره ابن قدامة:

(وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدِّها، فيُعالَج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشَّره بالكفِّ عن المشتهى) (١٠٩) .

لكن سيئ الظن لا يعترف لك أنه سيئ الظن، ولو اعترف أنه سيئ الظن لانحلت الورطة!

وهاك بين يديك أسلحتك الفعالة في مواجهة عدوك:

١- الستر:

هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول:

(لو أخذتُ سارقا لأحببتُ أن يستره الله) (١١٠) .

طبيعة المسلم الحق تميل للستر، وإذا كان هذا هو منهج الإسلام مع مَن ارتكب ما يوجب العقوبة طالما فعلها سرا، فكيف نقول فيمن يأخذ الناس بالتهم والظن، ويعاقب على الشبهة، ويحكم على الضمائر والنوايا؟!

تجده يقول: **كان يقصد كذا، وكانت نيته كذا، وكأنه شقَّ صدر صاحبه فاطلع عليه، وأخرج ما في قلبه!**

حكى الشعبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلس بين مجموعة من أصحابه، وفيهم

(١٠٩) مختصر منهاج القاصدين ص ١٥٤.
(١١٠) مكارم الأخلاق ص ٤٩٣.

جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وبينما هم جالسون أخرج أحد الحاضرين ريحا، وأراد **عمر** أن يأمر صاحب ذلك الريح أن يقوم فيتوضأ، فقال **جرير لعمر**: **يا أمير المؤمنين، أو يتوضأ القوم جميعا!** فسُرَّ **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه من رأيه وقال له:

(رحمك الله.. نِعْمَ السيد كنت في الجاهلية، ونعم السيد أنت في الإسلام)(١١١) .

وهذه الروح كانت تسري عند المحَدِّث الثقة **ميمون بن مهران**، فكان يقول:

(ما بلغني عن أخٍ لي مكروهٌ قط، إلا كان إسقاط المكروه عنه أحب إلي من تحقيقه عليه؛ فإن قال: لم أفعلْ، كان قوله أحب إلي من بينةٍ تشهد عليه)(١١٢) .

٢- حمل الكلام على المحمل الحسن:

كما بيَّن ذلك **ابن القيم** حين قال:

(والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عليه)(١١٣) .

ولهذا لم يُحكم بالكفر على العبد الذي أخطأ من شدة الفرح فقال: **اللهم أنت عبدي وأنا ربك**؛ لأنه لم يقصد تأليه نفسه، وعلى هذا رأينا **عمر بن عبد العزيز** لما خرج ذات ليلة ومعه حارس دخل المسجد في الظلمة، فتعثر برجل نائم، فرفع الرجل رأسه وقال : **أعمى أنت ؟؟** قال : **لا !** فهمَّ به الحارس، فقال له عمر: مه **(أي كف) إنما سألني وأجبته!**

٣- التماس العذر:

أخرج **أبو داود** في سننه عن **عبدالله بن عمر** رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: **يا رسول الله..كم نعفو عن الخادم؟** فصمت ثم أعاد عليه الكلام فصمت فلما كان في الثالثة قال:

---

(١١١) البداية والنهاية ٨/ ٦١ .
(١١٢) تاريخ الرَّقَّة ص ٤٨.
(١١٣) مدارج السالكين ٣/ ٤٨١.



«اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة» (١١٤) .

وامتثل **حمدون القصَّار** الأمر النبوي والتوجيه الرباني فطلب إلينا ما يلي:

(إذا زلَّ أخٌ من إخوانكم فاطلبوا له سبعين عذرا، فإن لم تقبله قلوبكم فاعلموا أنَّ المعيب أنفسكم؛ حيث ظهر لمسلم سبعين عذرا فلم تقبله) (١١٥) .

كلام رائع ووصية غالية، تغلق بها الباب في وجه الشيطان، وتمسك على يديه إن أراد أن يسرق من حسناتك دون أن تشعر، ولذا كانت علامة عقل، بل جزم الراشد الخامس **عمر بن عبد العزيز**:

(أعقل الناس أعذرهم لهم) (١١٦) .

وهي علامة رجحان العقل، وإلا فما العقل في من يبني بنيان حسناته ثم يهدمه، ومن حفر حفرة ثم ردمها، ومن خط كتابا بيمينه ثم محاه بشماله، وبذا جزم **الإمام ابن تيمية** حين قال:

فقبول العذر دليل على سلامة الصدر، وسعة العقل، ونسيان الماضي، وكما قال **كُثيِّر عزة** :

وَمَنْ لَمْ يُغْمِضْ عَيْنَهُ عن صديقه ... وَعَنْ بَعْضِ مَا فيه يَمُتْ وَهْوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبــــع جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَة ... يَجِدْهَا ولا يَسْـَمْ له الدَّهْرَ صاحِبُ (١١٧) .

ولعلَّ من الكلام الذي يحسن إيراده في هذا المقام ما قاله **الحسن بن علي** - رضي الله عنهما -:

(١١٤) الحديث حسَّنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح:٣/ ٣٤١ وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٥١٦٤.

(١١٥) شعب الإيمان ١٣/ ٥٠٤ – ط مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض..

(١١٦) الآداب الشرعية والمنح المرعية ١/ ٣٠٤.

(١١٧) الآداب الشرعية والمنح المرعية ١/ ٣٠٤.



(لو أن رجلا شتمني في أذني هذه واعتذر إلي في أذني الأخرى لقبلت عذره) (١١٨) .

٤- الدعاء:

وهي وصية رائعة لا تخطر على بالك، تقهر بها عدوك، وتُسعِد بها نبيك.

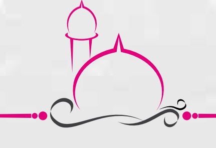
قال ابن قدامة:

(ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يُلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة لأخيك) (١١٩) .

٥- الحكم بالظاهر لا على الخفايا:

فى قصة أسامة بن زيد –وهو حِبُّ رسول الله ﷺ– حينما قتل المحارب الذي قال: لا إله إلا الله، فقال له النبى ﷺ: **أفلا شققت عن قلبه. قال أسامة: فما زال يكرِّرها على حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.**

وقصة هذا المحارب أنَّه قام وقتل صحابيا من صحابة رسول الله ﷺ، وحينما رآه أسامة بن زيد لاذ والتجأ بشجرة، فأراد أسامة أن يهوي بسيفه على رأسه، فقال ذلك المشرك: **لا إله إلاَّ الله**، وموقف ذلك المشرك يوحي بأنَّه لم يقل الشهادتين إلا خوفا من السيف، ومع هذا كان عتاب رسول الله لأسامة حتَّى أن أسامة تمنَّى أنَّه لم يكن أسلم إلاَّ ذلك اليوم ليمحو عنه ما تقدَّم.



(١١٨) الآداب الشرعية والمنح المرعية ١/ ٣٠٢.
(١١٩) مختصر منهاج القاصدين ص:١٨٧– ابن قدامة المقدسي.



مدد دعائي!

اللهم استر عصاة المسلمين

واجعل سترك عليهم في الدنيا علامة العفو عنهم في الآخرة.

ارزقنا قلوبا نقية لا غل فيها ولا بغي ..

تعفو عن المسيئين ..

وتتجاوز عن المخطئين ..

ارزقنا طيب السريرة ..

وحسن الظن ..

وإضمار الخير لخلقك ..

طهِّر قلوبنا من الإثم ..

واملأها بنوايا الخير ..

وحب الغير ..

وهب لنا أفئدة كأفئدة الطير ..

واشغلنا بأنفسنا ..

واجعل حسن ظننا بخلقك بابا إلى حسن الظن بك ..



واجعل ضمائرنا نقية ..

وسرائرنا ندية ..

اللهم جنِّبنا مواطن الشبهات ومواقف الاتهامات ..

اللهم استر عبادك الأبرار ..

ولا تهتك عنهم الأستار ..

لا نتتبع العثرات ..

ولا نتطلع إلى العورات ..

ولا نفرح بالزلات ..

اجعلنا سترا للعصاة والمذنبين ..

واستر بذاك علينا في الدنيا ويوم الدين ..

المعركة الرابعة: نسيان الذنب أو ذنب النسيان!!

قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف:٥٧].

لكن ..

ما سبب هذا النسيان؟

وإلى ماذا يشير؟!

السبب: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، جعل على قلوبهم من ذنوبهم أكنة أي أغطية، فسدَّ عليهم أبواب الهداية وكأن على قلوبهم أغطية محكمة تمنعهم أن يفقهوا الآيات، وإن سمعوها، فليس في إمكانهم فهم ما فهمه غيرهم من أصحاب القلوب الحية، فالعلاقة هنا علاقة تعليل وسببية..

- من أظلم ممن نسي ما جنى في حق نفسه، فلم ينظر إلى أن المسيء لابد له من جزاء ووقفة حساب في يوم قادم لا محالة.

- من أظلم ممن نسي أن يتوب مما سلف من الذنوب، فتتابعت عليه العيوب، واتسعت الخروق حتى مات.. مات قلبه!!

- من أظلم ممن عوقب بتعسير أحواله على ما أجرم في حق ربه، فاتهم خالقه، واعترض على أحكامه، وتبرَّم من قضائه، ثم تجاوز عدوانه الحدود حين شكا الرب الجليل إلى العبد الذليل، متناسيا جُرمَه الذي بسببه أصابه ما أصابه، وأنه البادي، والبادي أظلم!!

- من أظلم ممن رأى الآيات فلم يعتبر بها، وتعرَّض طريق الخير فأعرض عنه، ولمح مواقع الشر فهوى إليها، لا يفقهه وعظًا ولا تذكيرًا، ولا يستمع تحذيرًا ولا تبشيرًا.

وما أخطر هذا الداء..

نعم.. المعصية سمٌّ قاتل إن لم تتداركه بشرب الترياق المناسب قضى عليك.

والمغفرة هي الستر، فإن ستر الله ذنبك كان ذلك رجاء عفوه وعدم معاقبتك به دنيا وآخرة.

ومن بعد الستر والمغفرة تحتاج لرحمة الله سبحانه، وذلك بتوفيقك لما يُصلح قلبك وإلا خسرت.

فالمغفرة تحميك من الشر والضُّر، والرحمة تجلب لك الخير والنفع، والرب سبحانه إلم يغفر لك فيحميك من السيئات، ويرحمك فيوفقك للحسنات، هلكت ولابد، ولذا كان دعاء آدم وحواء بعد التجربة الإغوائية الأولى:

﴿ وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

لكن..

ما خطورة هذا النسيان الذي يتزعمه الشيطان ويقوده؟!

هذه أسباب الخطورة:

١. عدم التوبة:

قال تعالى:

﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

الناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثمَّ قسم ثالث غيرهما، وأبشع الظلم ظلم الإنسان نفسه..لماذا؟!

لأن حبك لنفسك فطري، فهي أحب شيء إليك، فكيف تظلمها؟!

فظلمها هو غاية الاستهتار والتضحية بها في النار، ومن نسي ذنبه لم يتب، ومن لم يتب فقد هلك!

وأضرب لذلك مثالا:

لو أعطيت أحد أصحابك موعدا، فأخلفته، وموعدا تلو آخر تخلفه، مع اعتذارك كل مرة، فما رد فعله؟!

هل إلا الخصام وقطع الأواصر والأرحام؟!

فما بالك مع الله؟!

تخلف معه موعدك مرة بعد مرة ولا يؤاخذك!

تتأخر عن إجابته وجرأتك تتكرِّر، ومع ذلك يمهلك!

تخالف أمره متعمِّدا أو شبه متعمِّد، ومع هذا يستر عليك ويقبلك!

وما أكثر ما تنسى وتتناسى هذه المكرمات! فتغرق في بحار الظلمات المسماة بالسيئات!

قال ابن الجوزي:

(خالف موسى الخضر في طريق الصحبة ثلاث مرات فحل عقدة الوصال بكف: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.. أما تخاف يا من لم يف لمولاه أبدا أن يقول في بعض خطاياك: هذا فراق بيني وبينك) [١٢٠] .

٢. قسوة القلب ..

يُظلِم القلب بالذنب، فإذا أنساه الشيطان جريمته تابع خطأه فمرِض، وإذا طالت فترة المرض دون تناول الدواء والاستشفاء احتضر القلب ثم مات، وموت القلب هو

---

(١٢٠) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٤٣،٢٤٤ .

قسوته حتى يصير كالحجر لا روح فيه، **(وما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب)** [١٢١]، وأخشى أن يكون دواءاللقلب القاسي بأن يلين في نار جهنم!

ولذا توعَّد الله أصحاب القلوب القاسية فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾، ولما كان وقود النار الناس والحجارة، كان الاشتراك بينهما واضحًا في القساوة، ومع هذا فقد أخبر الله أن من الحجارة ما هو ألين من كثير من قلوب الناس، وأطوع لله من عتاة النفوس، فقال عز وجل:

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤] .

ومن هنا استخرج مجاهد هذا الحكم اللطيف والمشاهدة الإيمانية الموفقة:

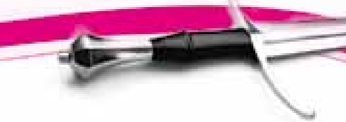
(كلُّ حجر يتفجّر منه الماء، أو يتشقّق عن ماء، أو يتردّى من رأس جبل، فمِنْ خشية الله، نزل بذلك القرآن) [١٢٢] .

وأما من استهدفهم الشيطان بقسوة القلب، فلهم علامات غير خافية:

- من لم يتألم قلبه لوقوع ذنبه ..
- من أذنب وهو يضحك ..
- من دعا غيره إلى ذنبه ..
- من فاخر الناس وتباهى بتقصيره وإثمه..

كل هؤلاء على خطر، ونسيان ذنوبهم جرَّهم إلى جرائم أخطر، وهذه من أهم عقوبات المعاصي التي أوردها ابن القيم:

(١٢١) تفسير القرطبي ١٥/ ١٦١ وهو قولٌ لمالك بن دينار.
(١٢٢) الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٩٧.



(إن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك) [١٢٣] .

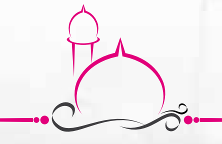
٣. النفاق

إن نسيان الذنوب ومن ثم تتابعها يؤدي إلى ما هو أقبح من الذنوب وأخطر، ألا وهو انسلاخ القلب من تحكيم الوحي والقرآن كما لمح ذلك **ابن القيم**، وحذَّر منه تحذيرا شديدا فقال:

والله ما خوفي الذنـــوبَ فإنها ... لعلى طريق العفو والغفران

لكنما أخشى انسلاخ القلب من ... تحكيم هذا الوحي والقرآن

وهل هذا إلا علامة النفاق وأمارة الخذلان والعياذ بالله، ومن علم خطورة العاقبة اجتنب سلوك هذه السكة، وانتبه لزلـله.



(١٢٣) الجواب الكافي ص ٥٨.

الأسلحة المضادة

هي في كلمة واحدة:

تذكر العقوبة

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه على خطر عظيم فيها إلم يتب منها، وأنه مشرف على الهلاك إذا آخذه صاحب الحق بموجب حقه، فإذا طالع جنايته شمَّر للاستدراك قبل أن يُقبض، وتخلص من أسر الشيطان بالاستغفار والقرآن.

وتذكر هذه العقوبة هو دافعٌ إلى الخوف، وهذا الخوف طريق النجاة، ولهذا قال الواعظ ابن السماك:

(لا تخف مما تحذر، ولكن احذر مما تأمن)(١٢٤) .

أولا: سبب العقوبة:

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠] .

والباء للسببية، أي سبب ما أصابكم من مصائب هو أعمالكم.

ومانزل بلَاءُ قطّ الا بذنب، ولا رُفِع بلَاء إلَّا بتوبة، فما سلط الله على العبد بلاء إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره.

لكن من الذي يرى هذه العقوبات من البشر؟! ومن الذي يربطها بما سبق وقدَّمت يداه؟!

---

(١٢٤) شعب الإيمان ٩/ ٣٥٠.



إنه صاحب القلب فحسب.. من حاز بصيرة القلب، أما أعمى القلب غافل الروح فلا يراها، ولو كان حاد البصر لا يخطئ.

قال **ابن الجوزي**:

(ينبغي لكل ذي لبٍّ وفطنةٍ أن يحذر عواقب المعاصي؛ فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابةٌ ولا رحم، وإنما هو قائمٌ بالقسط، حاكمٌ بالعدل، وإن كان حلمه يسع الذنوب؛ إلا أنه إذا شاء عفا؛ فعفا كلَّ كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ، وأخذ باليسير؛ فالحذر .. الحذر) (١٢٥) .

وما أجمل قول **ابن عطاء** يقرع به أسماع الغافلين.. من قَلَب لهم الشيطان حقائق الأمور، وغرَّهم بزينة الدنيا الغرور، فقال رحمه الله في هجمة عليك لصالحك:

(ما أرخص دينك عليك!

لو قيل لك إن هذا الطعام مسموم لامتنعت عنه، ثم لو حلف لك بالطلاق إنه ليس بمسموم لتوقفت عنه، بل لو غَسَلْت الوعاء الذي هو فيه مرارا لنفَرْتَ منه نفسك.

فلم لا تكون كذلك في دينك؟!) (١٢٦) .

ثانيا: اختلاف العقوبة

اعلم أن العقوبة تختلف، فتارة تتعجَّل، وتارة تتأخر، وتارة يظهر أثرها، وتارة يخفى.

قال **ابن الجوزي**:

و آه من عقابٍ يتأخر حتى يُنسى سببه!!

(١٢٥) صيد الخاطر ص ١٢٨-١٢٩.
(١٢٦) تاج العروس ص ٤٧.

ويقول في موضع آخر:

(قد تبْغَتُ العقوبات، وقد يؤخِّرها الحلم، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادَرها بالتوبة، فكم مغرورٍ بإمهال العصاة لم يُمهَل!) (١٢٧) .

الجزاء إذن بالمرصاد: إن كانت حسنة، أو كانت سيئة، ومن أعظم الأخطار وفخاخ العدو الغرَّار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح، فلربما زارت العقوبة بعد مدة، وقلَّ من فعل ذنبًا إلا وأُخِذ به وعوقب عليه.

قال عز وجل: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] .

وتأخير العقوبة قد يؤدي إلى الاطمئنان والاغترار، ومن ثم التمادي في الآثام والأوزار.

(والواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة، ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من عين العين، لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبُتَّ الحاكم في حكمه) (١٢٨) .

والعقوبة لازمة إلا أن تُرفَع بتوبة.

قال ابن القيم:

(و هاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي؛ أنهم لا يرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسى، ويظن العبد أنه لا يُغبر بعد ذلك وإن الأمر كما قال القائل:

اذا لم يغْبرَّ حائطٌ في وقوعه ... فليس له بعد الوقوع غبارُ

وسبحان الله ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق، وكم أزالت من نعمة، وكم جلبت

(١٢٧) صيد الخاطر ص ٣١٤ .
(١٢٨) صيد الخاطر ص ٢٠٩ .



من نقمة، وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلا عن الجهال، ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقضَّ ولو بعد حين كما ينقضُّ السهم، وكما ينقضُّ الجرح المندمل على الغِش والدَّغَل)[١٢٩] .

ثالثا: أعظم العقوبات

أخطر العقوبات ألا يشعر العبد بوقع العقوبة، لأنه لو شعر بها لانتبه، واستدرك ما فات، وأحيا ما أمات، وهزم شيطانه في الكرة بعد أن انهزم أمامه آخر مرَّة.

قال ابن الجوزي:

(فوا أسفا لمضروب بالسياط ما يحس بالألم!

ولمثخنٍ بالجراح، وما عنده من نفسه خبر!

ولمتقلب في عقوبات ما يدري بها!

ولعمري إن أعظم العقوبة أن لا يدري بالعقوبة)[١٣٠] .

رابعا: أنواع العقوبات ..

من أهم ما يذكِّرك بهذه العقوبات: رفقة الصالحين، فلا تجالس إلا المؤمنين، فالمجالسة باب إلى المجانسة، فمن عاشر الأخيار اكتسب الخير، ومن عاشر الأشرار اكتسب الشر.

يشقى رجالٌ ويشقى آخرون بهم .. ويُسعِد الله أقوامًا بأقوامِ

الريح إذا مرت على الطيب نقلت الطيب، وإذا مرت على النتن تنقل الريح المنتنة،

(١٢٩) الداء والدواء ص ٥٣ – ط دار المعرفة .
(١٣٠) صيد الخاطر ص ٢٠٣ .

والجمر يوضع في الرماد فيَخْمَدُ، فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين.

الأول: عقوبات (دنيوية)

أهون العقوبة ماكان واقعا بالبدن في الدنيا.. مع أنها أكثر ما يشكو الناس منها اليوم، قد قال النبي ﷺ:

«ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب، وما يدفع الله عنه أكثر»[١٣١].

وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. والرزق ليس مالًا فحسب، بل قد يكون علمًا.

قال ابن مسعود:

(إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه)[١٣٢].

وقد تعاقب الأمة كلها بذنبك وبسببك أنت، والدليل حديث النبي ﷺ:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوه بيده، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[١٣٣].

قال عمر بن عبد العزيز شارحا الحديث:

(كان يُقال: إن الله لا يعذِّب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِلَ المنكر جهارا استحقوا العقوبة كلهم)[١٣٤].

قال ابن القيم رحمه الله:

(يؤدِّب الله عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة أو هفوة، فلا يزال مستيقظا حذرا، وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يُخلي بينه وبين معاصيه، وكلما

(١٣١) صحيح: رواه الطبراني والضياء في المختارة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٢١.
(١٣٢) الإحياء ٤/ ٥٣.
(١٣٣) السلسلة الصحيحة رقم: ١٥٦٤.
(١٣٤) الزهد لأحمد بن حنبل ص ٢٣٩.



أحدث ذنبا أحدث له نعمة، والمغرور يظُنُّ أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها) (١٣٥) .

الثاني: عقوبات الدين

وأول عقوبات المعصية المعصية بعدها، وبعدها العقوبات الإيمانية التي أوردها ابن الجوزي في كتابه ذم الهوى:

(وأشدها العقوبة بسلب الإيمان والمعرفة، ودون ذلك: موت القلوب، ومحو لذة المناجاة منه، وقوة الحرص على الذنب، ونسيان القرآن، وإهمال الاستغفار، ونحو ذلك مما ضرره في الدين، وربما دبَّت العقوبة في الباطن دبيب الظلمة إلى أن يمتلىء أفق القلب فتعمى البصيرة) (١٣٦) .

فتأمَّل قوله (دبيب الظلمة) من حيث لا تشعر تُعاقب، وليست عقوبة أشد من انطماس بصيرة القلب، والمقدمات لانطماس البصيرة هي حرمان بكاء الخشية، وضياع الخشوع، وفوات صلاة الجماعة، والتخلف عن عمل الخير، والنوم عن صلاة الفجر، وهي كلها عقوبات قاسية تدعوك لمراجعة نفسك واستدراك الفائت، وتنبِّهك على خطورة تأخير التوبة.

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر:

(وُربَّما كان العقاب العاجل معنويًا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل:

يا رب!

كم أعصيك ولا تعاقبني!

فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري!

---

(١٣٥) زاد المعاد ٣/ ٥٠٦ .

(١٣٦) ذم الهوى ٢١٠ .

ألست قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟!

فمن تأمَّل هذا الجنس من المعاقبة، وجده بالمرصاد، حتى قال وهيب بن الورد، وقد سئل:

أيجد لذة الطاعة من يعصي؟

قال: ولا من هَمَّ.

فرُبَّ شخص أطلق بصره فحُرِم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرِم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سره وحرم قيام الليل وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس)(١٣٧) .

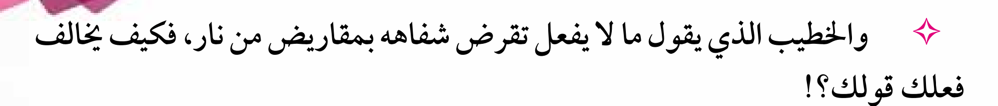
ثالثا: عقوبات الآخرة

لو عاين العاصي بقلبه عقوبات توعَّده الله بها في الآخرة لأقلع، ولما ترك ذنبه إلا بعد أن يمحوه بدمعة، ويمسحه بسجدة، ومن عقوبات المعاصي التي وردت في الأحاديث:

- ✧ الكاذب في قبره يُشرشر بكلوب من حديد من فمه إلى قفاه، ومن منخره إلى قفاه، ومن عينه إلى قفاه، فكيف تكذب؟!
- ✧ والمتكبر يحشر كأمثال الذر يطؤه الناس، فكيف تتكبر؟!
- ✧ وآكل الحرام كالرشوة والسرقة يشوى بالنار، فكيف تسرق؟!
- ✧ والذي يأكل لحوم الناس ويقع في أعراضهم يخمش وجهه غدا بأظفار من نحاس، فكيف تغتاب؟!
- ✧ وآكل الربا يسبح في بحر من الدم، يسبح ويلقم بحجر، فكيف ترابي؟!
- ✧ والزاني والزانية يأتيهم في النار لهب من أسفل منهم، فكيف الزنا؟!

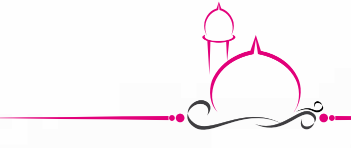
---

(١٣٧) صيد الخاطر ١/ ٦٥ .



✧ **والخطيب الذي يقول ما لا يفعل تقرض شفاهه بمقاريض من نار، فكيف يخالف فعلك قولك؟!**

من وضع هذه العقوبات نصب عينيه لم يقع في ما يورِّطه فيها، وظل متيقِّظا متنبِّها لم ينس ذنبه، ولم يخاصم ربه.



مدد دعائي!

إلهي:

لا تعاجلنا بعقوبتك ..

ولا تؤاخذنا بشدتك..

وأمهلنا حتى نتوب

وإلى رشدنا نثوب ..

قبل نزول الموت ..

وحلول الفوت ..

اللهم لا تسلبنا حلاوة الإيمان ..

ولا تُنْسِنا القرآن بكثرة العصيان ..

ولا تحرمنا لذة القيام بين يديك بما جنت اليدان..

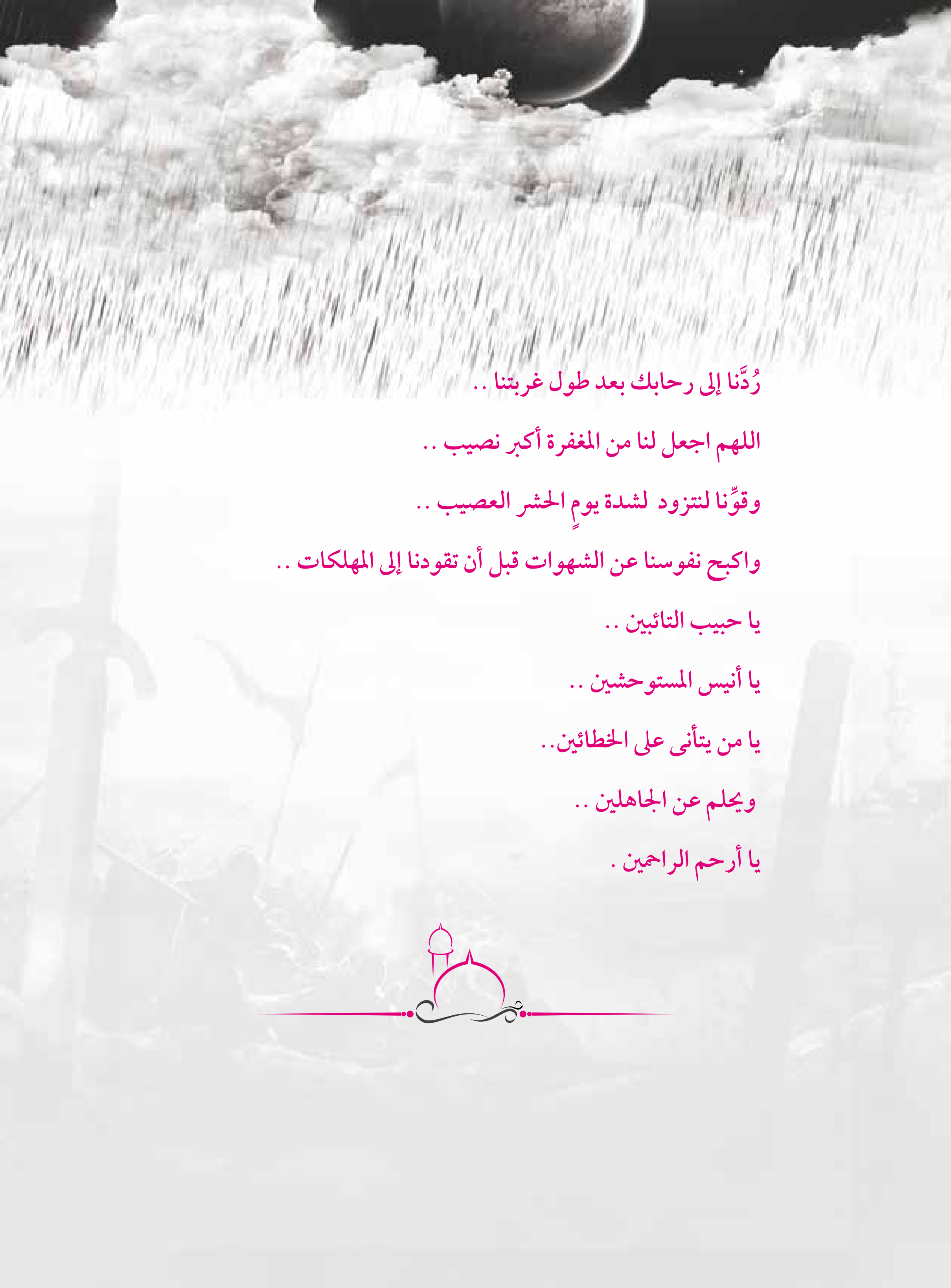
خلِّصنا من عقدة الإصرار ..

وأعتق قلوبنا من حب الاوزار ..

اللهم نبِّهنا من غفلتنا ..

أيقظنا من سكرتنا ..

أنقذنا من شهوتنا ..



رُدَّنا إلى رحابك بعد طول غربتنا ..

اللهم اجعل لنا من المغفرة أكبر نصيب ..

وقوِّنا لنتزود لشدة يومٍ الحشر العصيب ..

واكبح نفوسنا عن الشهوات قبل أن تقودنا إلى المهلكات ..

يا حبيب التائبين ..

يا أنيس المستوحشين ..

يا من يتأنى على الخطائين..

ويحلم عن الجاهلين ..

يا أرحم الراحمين .

المعركة الخامسة: أكل الحرام!!

عن **وائل بن حُجْر** رضي الله عنه أنه قال:

جاء رجل من **حضرموت** ورجل من **كندة** إلى النبي ﷺ، فقال الحضرمي: **يا رسول الله! إنَّ هذا قد غلبني على أرضٍ كانت لأبي.**

فقال الكندي: **هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق.**

فقال رسول الله ﷺ للحضرمي: **«ألك بيِّنة؟»**

قال: **لا.**

قال:

«فلك يمينه».

قال: **يا رسول الله! إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورَّع من شيء.**

فقال: **«ليس لك منه إلا ذلك»** فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لما أدبر:

«أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلمًا، ليلقينَّ الله وهو عنه مُعرِض»[١٣٨].

ومن أعرض الله حرمه من رحمته، ومن حرمه من رحمته عذَّبه ..

والعذاب قد يكون في شيء يسير كما يكون في العظيم، والتهاون بالعقوبة يقرِّب من العقوبة، والشيطان يدنيك من محقِّرت الذنوب كي يقتلك به، ولهذا جاء في الحديث:

«من اقتطع مال امرىء مسلم بيمينه حرَّم الله عليه الجنة، وأوجب له النار».

(١٣٨) صحيح: رواه الطبراني في الكبير واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد – صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٨٤٠.



قيل: **يا رسول الله، وإن كان شيئا يسيرا.**

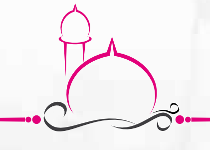
قال: **وإن كان سواكا**[١٣٩].

يا مسكين!!

والله ما تساوي لذة سنة في الحرام غم ساعة في النار، فكيف إذا كانت اللذة ساعة والعذاب أبدًا؟!

فماذا لو أراد آكل الحرام أن يُثبِّت هذا الباطل، فدلَّه شيطانه على اليمين الكاذبة؟ اسمع العاقبة:

«من اقتطع مال امرئ مسلم؛ بيمين كاذبة؛ كانت نكتة سوداء في قلبه، لا يغيِّرها شيء إلى يوم القيامة»[١٤٠].



(١٣٩) صحيح: رواه مسلم كما في صحيح مسلم رقم: ٢٢٣.
(١٤٠) صحيح: رواه الحاكم كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٣٦٤.

خطورة هذا السلاح

خطورة هذا السلاح أن يحرق صاحبه غدا في النار، لأن (**من نبت جسمه على الحرام، فمكاسبه كبريت به يوقد**) [١٤١] ، وأن الله لا يقبل صلاة امرىء في جوفه حرام، وأكل الحرام إنما يكسر مفاتيح الإجابة، ولذا قال **يحيى بن معاذ**:

(**الطاعة خزانة من خزائن الله، إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانه لقم الحلال**) [١٤٢] .

وجرعة الحرام سمٌّ تسري في الجسد، فتتوزع على الجوارح لتقودها نحو الحرام، شاءت أم أبت، وكأن أكل الحرام يملك عليك كل شيء، فيقودك إلى المهالك.

قال **سهل**:

(**من أكل الحرام عصت جوارحه، شاء أم أبى؛ علم أو لم يعلم**) [١٤٣] .

ولهذا لا يبذل الشيطان جهدًا كبيرًا في إغواء آكل الحرام، فهو لقمة سائغة وغنيمة باردة، وهو ما لمحه مقاتل إيماني بارع اسمه **يوسف بن أسباط**، ثم قال:

(**إذا تعبَّد الشاب يقول إبليس: انظروا من أين مطعمه، فإن كان مطعمه مطعم سوء قال دعوه، لا تشتغلوا به، دعوه يجتهد وينصب فقد كفاكم نصيبه**) [١٤٤] .

ولذا فأكل الحلال عمود من أعمدة الدين كما رآه **أحمد بن حنبل**، فما القصة؟!

كان بين **أحمد بن حنبل** و**يحيى بن معين** صحبة طويلة، فهجره **أحمد** إذ سمعه يقول: **إني لا أسأل أحدا شيئا، ولو أعطاني الشيطان شيئا لأكلته. حتى اعتذر يحيى، وقال: كنت أمزح، فقال: تمزح بالدين! أما علمت أن الأكل من الدين؛ قدَّمه الله تعالى على العمل الصالح، فقال** ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ ﴾ [١٤٥] .

---

(١٤١) المدهش، ص ٣٨٧.
(١٤٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٩١.
(١٤٣) إحياء علوم الدين ٢/ ٩١.
(١٤٤) الزهد الكبير ١/ ٣٤٢.
(١٤٥) إحياء علوم الدين ٢/ ٩١.



الأسلحة المضادة

بشرى:

ما لم تقع الإصابة في مقتل فالعلاج يسير والشفاء ممكن، وشفاؤك مضمون إذا تسلَّحت بهذه الأسلحة:

سلاحك الأول: التوبة من الحرام ..

وهي توبة عملية بالتطهر من الكسب الحرام، والتخلص منه.

وجد النبي ﷺ تحت جنبه تمرة من الليل، فأكلها، فلم ينم تلك الليلة، فقال بعض نسائه: **يا رسول الله، أرِقتَ البارحة؟** قال:

«إني وجدت تحت جنبي تمرة، فأكلتها، وكان عندنا تمر من تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه»[١٤٦] .

وقوله: **أرقت أي من الأرق إذا سهر، ولم يأخذه النوم لعلة أصابته.**

وفي رواية الحاكم أن النبي ﷺ أكل التمرة، فماذا فعل؟! اسمع:

تضوَّرَ ذات ليلة، فقيل له: **ما أسهرك؟!**

قال:

«إنِّي وجدْتُ تمرة ساقطة فأكلتُها، ثُمَّ تذكرت تمرا كان عندنا من تمر الصَّدقة، فلا أَدري أمن ذلك كانت التَّمرةُ، أو من تَمْرِ أهلي فذلك أسْهَرَني»[١٤٧] .

---

(١٤٦) حسن: مسند أحمد، رقم: ٦٨٢٠.
(١٤٧) صحيح: رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: ٢١٧٣.

السلاح الثاني: اليقين بالرزق:

وسلاحك الثاني في وجه الشيطان، ورمحك النافذ في صدره هو يقينك التام بأن رزقك مقسوم لك قبل أن تولد، بل قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، ولهذا فكل ساعٍ إلى الحرام فهو أبله .. فلو صبر عنه في الحرام لساقه الله إليه حلالا زلالا، ولكنكم قومٌ تستعجلون!

قال رسول الله ﷺ:

«إن روح القدس نفث في رُوْعي: إن نفسًا لا تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإن الله لا يُدرك ما عنده إلا بطاعته» (١٤٨) .

هل تصدِّقون الشيطان الذي يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (البخل) أم تصدِّقون رسول الله ﷺ الذي وعدكم:

«لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت» (١٤٩) .

لا هروب إذن من قَدَر الإنسان .. خيرا كان أم شرا..

وهذا الفهم لو استقر في قلب العبد ما تجرَّأ عليه شيطان ولا تسلل إليه..

سبحان الله .. من الذي يَعِد؟!

من الذي يرزق؟!

إنه الله الذي أخرج الماء من الحجر ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًا﴾ ، وأخرج الحَجَر من الماء ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٍ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ ؟!

---

(١٤٨) حسن: رواه ابن حبان والحاكم وحسنه الألباني في الصحيحة رقم: ٢٨٦٦.
(١٤٩) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية عن جابر وحسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٥٢٤٠.

هو الذي يُخرج الحي من الميت، والميت من الحي؟!

وما زلتَ بعدُ غير واثق في ربِّك؟!

ولتمام الثقة يصف **أحمد بن حنبل** أحلى أيام حياته قائلا:

(أسرُّ أيامي إليَّ يوم أصبح وليس عندي شيء) (١٥٠).

ولذا قال **ابن عطاء**:

(اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طَلَب منك دليل على انطماس البصيرة منك).

وإن ألحَّت عليك زوجتك في طلب المزيد من المال على حساب آخرتك، ووسوس إليها الشيطان بشدة الحرص على الرزق، فاجعل الردَّ عليها قولك:

لا تجزعي إنَّ الفؤاد قد امتطى ... ظهر اليقين وفي معارجِه ارتقى
غذَّيتُ قلــبيَ بالكتاب وآيِهِ ... وجعلتُ لي في كلِّ حـقٍّ منطقا
ووطَأتُ أوهامي فما أسكنتها ... عقلي وجـاوزتُ الفضاء محلِّقا

السلاح الثالث: اليقين بأن من ترك شيئا لله.

وهو درسٌ تعلمه رجل من أهل البادية أخذ رسول الله ﷺ بيده، فجعل يعلِّمه مما علمه الله، وقال له:

«إنك لن تَدَعَ شيئا اتقاء الله، إلا أعطاك الله خيرًا منه».

وصدق شيخ الإسلام **ابن تيمية** حين قال:

(من كان في الله تَلَفُه كان على الله خلَفُه) (١٥١).

(١٥٠) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية عن جابر ﷺ وحسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٥٢٤٠.
(١٥١) صفة الصفوة ١/ ٤٨٢.



وقد وعد النبي ﷺ بأن من يستغن يُغنِه الله .. فما معناها؟

أي إما أن يغنيك ماديا وإما أن يملأ قلبك بالغنى، فتستغني عن غيرك، بعد أن اكفاك بربك.

من الذي يتحكَّم في القلوب؟!

ترى الرجلين يتقاضون الراتب نفسه؟

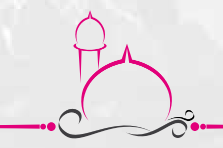
وهذا راض، وهذا غير راضٍ!

فما السِّر في ذلك إلا رضا الله عن هذا، وعدم رضاه عن ذاك..

إن المقاتل الشجاع اليوم يخوض معركة الرزق وهو راضٍ في كل الأحوال، فإن وسَّع الله عليه رزقه شكَر، وإن ضاق رزقه اطمأن إلى حسن اختيار الله وحمايته له مما يضرُّ.

قال **ابن تيمية**:

(التقيُّ لا يُحرم ما يحتاج إليه من الرزق ، وإنما يُحمى من فضول الدنيا رحمة به وإحسانا إليه) [١٥٢].



(١٥٢) مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٣.

بطولات ميدانية

تحكي عائشة رضي الله عنها عن أبيها الصديق ﷺ:

كان لأبي بكر الصديق غلام يخرج له الخراج -أي يأتيه بما يكسبه من الخراج، والخراج ضريبة يتَّفق العبد مع سَيِّده على أدائها إليه كل يوم أو كل مدة، فيقــول: أئتِ لي كل يوم بكذا وكذا، وما زاد فهو لك، وكان أبو بكر يأكل من خراجـــه،فجاءه غلامه يوما بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال الغلام: تدري ما هذا؟

فقال أبو بكر: وما هو؟

فقال: كنت تكهَّنتُ لإنسان في الجاهلية، وما أُحسِن الكهانة (والكهانة ادعاء معرفة الغيب). إلا أني خدعته، فلقيني، فأعطاني، لذلك هذا الذي أكلت منه؛ فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه.

فتأمل كيف أن أبا بكر أكل من هذا الأكل، وهو لا يعلم من أين هو، فلما علمه قاءه مع أنه معذور بجهله، وذلك لما ثبت عنده من النهي عن حُلوان الكاهن، وحُلوان الكاهن ما يأخذه على كهانته، وعِوَض الكهانة حرام، ســـواء كان الكاهن يحسن الكهانة أو لا يحسن؛ وحرمة هذا الطعام أنه عِوَض عن الحرام، وقد قال النبي ﷺ:

«إن الله إذا حرَّم شيئاً حرَّم ثمنه» (١٥٣) .

وانظر إلى الحرص على أكل الحلال حتى بعد الموت!

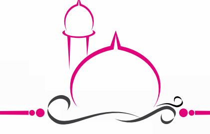
لما تُوُفِّي الإمام أَحمد وَجَّه ابن طاهر -نائب الخليفة المتوكل العباسيِّ- الأكفان، فرُدَّت عليه، وقال عمُّ الإمام أحمد للرسول:

(١٥٣) أخرجه أبو داود والسياق له والشافعي وأحمد كما في غاية المرام رقم: ٣١٨.



(قُلْ له: أحمد لم يدَعْ غلامي يُرَوِّحُه (يروِّح بهذه الأكفان عليه ليهوِّن عليه حرَّ الشمس)، يعني خشية أن أكون اشتريتُه من مال السلطان، فكيف نكفِّنه بمالك؟!) [١٥٤].

وليس بأقل منهما في القرن الحادي والعشرين من عرف أن عمله محرَّم وأن كسبه خبيث، فتاب من فور علمه، ورضي بحلالٍ قليل بدلا من حرام كثير.



(١٥٤) طبقات الحنابله ١/ ١٢ - القاضي ابن أبي يعلى - ط دار المعرفة .







المعركة السادسة: الذرة القاتلة

أولا: حقيقة الكبر

هو ذنب إبليس الأول، وجريمته الأشهر، ولذلك لما رأى **عبد الله بن عمر** رضي الله عنه رجلا يختال في مشيته ويجرُّ إزاره اعتبره مؤاخيا للشيطان، فقال:

(إنَّ للشيطان إخوانًا) (١٥٥) .

ومعنى الكِبْر جاء تعريفه في حديث النبي ﷺ فقد قال:

«الكِبْر بطر الحق، وغمط الناس».

فالكبر إذًا نوعان:

الأول: في التعامل مع الحق، وذلك بردِّه وعدم قبوله.

والثاني: في التعامل مع الخلق، بغمطهم واحتقارهم، وذلك ناشئ عن عجب الإنسان بنفسه، وتعاظمه عليهم.

وقد شرحه ﷺ في هذه الكلمات الجامعة.

فكل من استعظم أن يظهر الحق على لسان غيره فهو متكبر

وكل من استعظم نفسه ورفع قدر نفسه فوق قدر الآخرين، ونظر إليهم باحتقار فهو متكبر، ومن هنا قال **سفيان بن عيينة** في تعريفه للكبر:

(من رأى أنه خير من غيره فقد استكبر، وذاك أن إبليس إنما منعه من السجود لآدم عليه السلام استكباره) (١٥٦) .

---

(١٥٥) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٥٩.

(١٥٦) حلية الأولياء ٧/ ٢٦١.

ثانيًا: خطورة معركة الكبر

١ - الذرة الواحدة تحرم دخول الجنة

هو الداء الوحيد الذي تكفي الذرة منه لحرمان صاحبها الجنة.

قال النبي ﷺ:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[(١٥٧)] .

وليس بعد الجنة إلا النار، ولذا كان المتكبر من أهل النار:

«ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عُتُلٍّ جوَّاظ متكبر»[(١٥٨)] .

قال **الإمام الماوردي** وهو يكشف سِّر عقوبة الكِبر المغلَّظة:

(الكِبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويُكسبان الرذائل، وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب، لأن الكبر يكون بالمنزلة، والعجب يكون بالفضيلة، فالمتكبّر يجلُّ نفسه عن رتبة المتعلِّمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدِّبين)[(١٥٩)] .

ولهذا لا تنفع المتكبِّر حسناته؛ إذ يهدم كبره طاعاته، ويلوِّث قلبه، ولذا لما سئل **سلمان** رضي الله عنه عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة؟ أجاب دون تفكير:

(الكبر)[(١٦٠)] .

سلاح خطير .. يحطِّم كل ما تعبنا في تشييده من طاعات وقرُبات، ويجعله أثرًا بعد عين! وما يعبأ الشيطان بطاعاتنا إذا لم تورث تواضعًا لله ولا انقيادًا لأمره، ولهذا كانت

---

(١٥٧) صحيح: رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٧٤.

(١٥٨) صحيح: شطر من حديث أخرجه البخارى فى الصحيح : كتاب الأدب ، باب الكبر ، من حديث حارثة ابن وهب الخزاعى مرفوعاً . و الجواظ : الجموع المنوع.

(١٥٩) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٣١.

(١٦٠) التواضع والخمول ١/ ٢٧٤.

شدة الترهيب النبوي:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (١٦١) . .

ومن سمات هذا السلاح الشيطاني أن غزوه للقلوب غير مرئي، فيتسلَّل بخفاء وخبث إلى كل أنواع النفوس: **نفوس العلماء، والعُبَّاد، والدعاة، والكُتَّاب، وأصحاب المواهب والنجاحات**، فهو يسلك إلى كل نفس مسلكا غير الآخر، ولا يكاد يتركها إلا بعد أن يستقرَّ فيها، ويُعظِّم قدرها في عين صاحبها.

٢ - عدم الانتفاع بالآيات:

وخطورة هذا المرض، أيضًا: أن القلب الذي تدخل فيه ذرة كبر لا يصلح لاستقبال حقائق الإيمان وتنطمس بصيرة القلب، حتى يعمى، فيرى الحق باطلاً والباطل حقًا، وذلك مصداق قوله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

والآيات هنا هي على ثلاثة أقوال:

آيات الكتاب المتلوَّة:

فالمتكبِّر:

- يقرأ لعن الله للربا ويرابي!
- تمرُّ ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ وتعاند!
- يتلو ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾، ويظلم، ويأكل حقوق الناس ويظنها مهارة وحرفة.

(١٦١) صحيح: رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٧٤.

وللصرف في الآية معانٍ:

أحدها: **أمنعهم فهمها.**

والثاني: **أحول بينهم وبين الإيمان بها.**

والثالث: **أحرمهم العمل بها.**

خلق الله:

الرأي الثاني أن هذه الآيات هي المخلوقات كالسماء والأرض والشمس والقمر وغيرها، فيكون المعنى: **أصرفهم عن التفكر والاعتبار بما خلقتُ له.**

وهذا تهديد خطير للمتكبرين؛ أنهم لن يستطيعوا الفوز برؤية آيات الله ودلائل قدرته، وإن رأوها فلن ينتفعوا بها، ولو رأوا طريق الحق فلن يسيروا فيه، وهذا من شديد التهديد لكي لا يتكبَّر أحد، وليتواضع.

اللهم أجرنا من الكبر! فلقد رأى خبراء القتال الإيماني أن كل إصابة أثناء معركتنا مع الشيطان مجبورة إلا الكِبر، فإنه مخيف! قال **سفيان بن عيينة**:

(من كانت معصيته في الشهوة فارْجُ له، ومن كانت معصيته في الكِبْر فاخش عليه، فإن آدم عصى مشتهيًا فغُفر لَهُ، وإبليس عصى متكبّرًا فلُعن) [(١٦٢)] .

٣ - مرض خفي:

ومن مخاطره أنه مرض خفي، يحتاج إلى مرآة ناصعة، وهي الصحبة الناصحة، ولعله ينجلي عند النقاش مع الأقران، ذلك أن الاعتداد الفردي بالرأي كارثة (إيمانية) إذ يغرس في القلب الكِبر من حيث لا يشعر صاحبه.قال **ابن تيمية**:

---

(١٦٢) تاريخ الإسلام ١٣/ ١٩٦.

(ومعصية الكبر والعُجب والرياء أعظم من معصية شرب الخمر، فالشارب الخاشع الخائف من ربه أقرب إلى رحمة ربه من الصائم المتكبِّر المُعجب المرائي)[١٦٣] .

ولهذه المعركة ساحات قتال كاشفة، سرعان ما يفتضح فيها أمر المصاب، فمنها الحسَب والنسَب والتفاخر بهما.

ومنها التفاخر بالجمال وخاصة في النساء.

ومنها التباهي بالثراء والمال.

ومنها التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والأقارب والبنين، حتى أن ما نراه على صفحات التواصل من التنافس في كثر المتابعين يدخل في هذا الباب.

ومنها التكبر بالقوة والسلطان والمنصب، فالرئيس على مرؤوسيه، والساكن على حارس العقار، والزوج على زوجته، والأخ الأكبر على الأصغر.

أو حتى التكبر بالعبادة حين يظن المتدين أنه أفضل من غيره، وأقرب إلى الله من شارب الخمر ومرتكب الكبيرة الظاهرة، مع أنه قد يكون صاحبَ كبيرة قلبية أكبر، وذنب خفيٍّ أشد.

قيل لجبير بن نفير: أي الكبرين أشر؟!

قال: كِبْرُ العبادة[١٦٤] .

ولذا أرشدك إسحاق بن خلف إلى أشد ضربة توجِّهها لشيطانك في قوله:

(ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم : ليت شعري .. بم يُختم لي؟ قال : عندها ييأس منه ويقول: متى يعجب هذا بعمله ؟)[١٦٥] .

---

(١٦٣) الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق ١/ ٦٥ – ابن تيمية – دار عالم الفوائد – مكة .
(١٦٤) حلية الأولياء ٥/ ١٣٣.
(١٦٥) شعب الإيمان ١/ ٥٠٨.

اختبارات كاشفة

وهو اختبار ..تعرف به هل أنت متكبر أو لا؟!

أربع مسائل:

١ - أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه؛ فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا..

٢ - أن يجتمع مع الأصحاب والأمثال في المجالس ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يفارقه .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه:

(لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مُشِي خلفه)[١٦٦] .

ولذا كَرِه غير واحد من السلف أن يتبعه الناس تعظيما وتوقيرا، فقال علقمة بن قيس النخعي الكوفي:

(أكره أن يوطأ عقبي)[١٦٧] .

فأين هذا ممن تفرح قلوبهم بكثرة الأتباع، وبمن يسير خلفهم من أجل الاتباع، وذلك أكثر من فرحه بأي شيء آخر.. شهوة خفية، وكبيرة منسية!

وهذا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وقد لمح مكيدة الشيطان وهجومه على قلبه حين أَمَّ قومًا يومًا، فلما انصرف قال:

(مازال الشيطان بي آنفًا حتى رأيت أن لي فضلًا على من خلفي، لا أؤم أبدًا)[١٦٨] .

(١٦٦) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢٠
(١٦٧) صيد الخاطر ١/ ٣٠
(١٦٨) الزهد لابن المبارك برقم : ٨٣٤ ص٢٨٧.

أما **عبد الرحمن بن عوف** ﷺ فقد سدَّ هذا الباب في وجه إبليس، وأغلقه دونه بلا رجعة، فكان رحمه الله لا يُعرف من عبيده؛ إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة، ومثله **إبراهيم النَّخَعِي** صيرفي الحديث، فقد روى **الأعمش**: **(كان إبراهيم يتوقَّى الشُّهرة، وكان لا يجلِس إلى أسطُوانة، وكان يجلس مع القوم فيجيء الرَّجُلُ فَيُوسِعُ له، فإذا اضْطره المجلِس إلى الأُسطُوانة قام)**[١٦٩] ، وكان **خالد بن معدان** إذا عظمت حلقته قام فانصرف، فقيل لصاحبه **صفوان**: **ولم كان يقوم؟** قال:

(كان يكره الشُّهرة)[١٧٠] .

٣ – أن يجيب دعوة الفقير فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، وقد كان الرسول ﷺ عنده مقومات الكبر ولا يتكبر، بل كان أكثر الناس تواضعا .. قال أنس ﷺ:

(إن كانت الأَمَةَ من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به في حاجتها)[١٧١] .

٤ – وكان من تواضعه كراهيته أن يقوم له أصحابه توجيلا وتوقيرا، وهو أحق الخلق بالتوجيل والتوقير! قال أنس ﷺ:

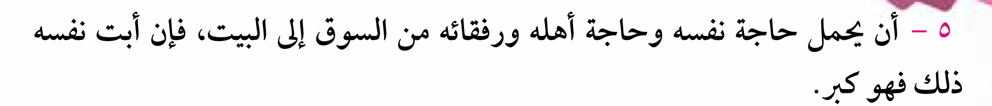
(لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك)[١٧٢] .

وكان من تواضعه ﷺ أنه يركب الحمار ويرُدِف فيه. يحكي لنا **أنس** ﷺ عن حال النبي ﷺ فيقول:

(كان ﷺ يرُدِف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار)[١٧٣] .

---

(١٦٩) المعرفة والتاريخ ٢/ ٦٠٧ يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي ط مؤسسة الرسالة بيروت.
(١٧٠) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٨٤ – ابن الجوزي- ط دار الكتب العلمية.
(١٧١) صحيح: إسناده صحيح على شرط الشيخين، كما في مسند أحمد بن حنبل رقم: ١١٩٤١.
(١٧٢) مختصر الشمائل المحمدية، رقم: ٢٨٨- أبو عيسى الترمذي- المكتبة الإسلامية – عمان – الأردن.
(١٧٣) صحيح الألباني في صحيح الجامع رقم :٤٩٤٥.



٥ – أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر.

روي أن **عمر بن عبد العزيز** أتاه ليلة ضيف، وكان يكتب فكاد السِّراج يطفأ، فقال الضيف: **أقوم إلى المصباح فأصلحه**، فقال: **ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه.**

قال: **أفأنبه الغلام؟!**

فقال: **هي أول نومة نامها.**

فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا، فقال الضيف: **قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين!**

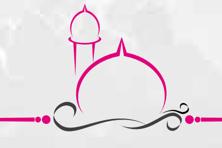
فقال:

(ذهبت وأنا عمر ..

ورجعت وأنا عمر..

ما نقص مني شيء ..

وخير الناس من كان عند الله متواضعا) (١٧٤) .



(١٧٤) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٥٥.

الأسلحة المضادة

اعلم أن العبد لا يقوى على الانتصار في معركة الكبر إلا بعلم وعمل، فأما:

أ- العلم:

فهو أن تعلم أن كل نعمة أنت فيهـــا فهي من الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ [النور: ٢١] .

فلولا فضل الله على المؤمنين ورحمته وحفظهم من كيد الشيطان ما كان ليطهر منهم أحد، وذلك لضعفهم واستعدادهم الفطري للاستجابة للعدو، فمن شعر بكماله لأنه نجا مما وقع فيه غيره من الإثم، فليتق الله، ولينسب الفضل في ذلك لله وحده لا إلى نفسه، وعندها يتواضع.

ب- العلم بعاقبة الكِبْر:

هي عقوبة دنيوية بالذل رآها **ابن القيِّم** ثابتة متكرِّرة فقال:

(وجعل عقوبة من تكبَّر عن قبول الحق والانقياد له: أن ألزمه من الذل والصغار بحسب ما تكبر عنه من الحق)(١٧٥) .

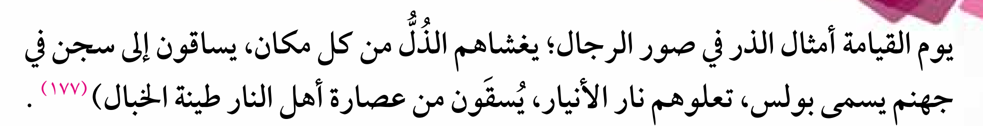
وعقوبة أخرى بحرمان التوفيق لكل من افتخر بصفة وحالة، إذ يكله الله إليها لينتقل من السعة إلى الضيق. قال **ابن القيم**:

(فإِن من ادعى لنفسه حالة مع الله سبحانه وكل إِليها، ومن وكل إِلى شيء غير الله فقد فتح له باب الهلاك والعطب، وأَغلق عنه باب الفوز والسعادة)(١٧٦) .

أما في الآخرة، فقد بلغك أن المتكبر لا يدخل الجنة، وهذا غير أنه: **(يُحشَر المتكبرون**

---

(١٧٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ٣٥٩.
(١٧٦) طريق الهجرتين ١/ ١٢.



يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال؛ يغشاهم الذُّلُّ من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقَون من عصارة أهل النار طينة الخبال)[١٧٧] .

فالجزاء من جنس العمل.. من تطاول تعظُّمًا وضعه الله يوم القيامة.

جـ- العلم بعدم دوام النعمة:

ومقومات الكبر قد تكون قوة، لكن ألم يرَ المتكبر قويًّا قد ضعف؟!

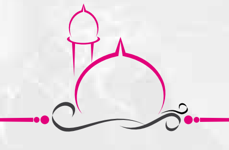
وقد يكون الثراء من مقومات التكبر، لكن ألم يرَ المتكبر غنيًّا قد افتقر؟!

أو يكون المتكبر صاحب جاه، ألم يرَ ذا جاه ذلَّ بين الناس؟!

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١] يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة، ولذلك فالكبرياء لله وحده.

وفي الحديث القدسي:

«قال الله تعالى: الكبرياء ردائي فمن نازعني في ردائي قصمته»[١٧٨] .



(١٧٧) حسن: رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠٤٠.
(١٧٨) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٥٤١.

بطولات ميدانية

ومع أنه أعلى الناس قدرًا، وأرفعهم مكانة، فقد كان ﷺ أشد الناس تواضعا، وألينهم جانبا، وحسبك أن الله سبحانه وتعالي خيَّره بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا، وما أجمل قول القائل يدعوك للاقتداء:

يا جاعلاً سنن النبي ... شعاره ودثاره

متمسِّكاً بحديثه ... مَتَتَبِّعا أخباره

سنن الشريعة خذ بها ... متوسّما آثاره

قد كان يُقري ضيفه ... كرماً ويحفظ جاره

ويجالس المسكين يؤ ... ثِر قَربه وجواره

الفقر كان رداؤه ... والجوع كان شعاره

بسط الرداء كرامةً ... لكريم قومٍ زاره

ما كان مختالاً ولا ... مَرِحاً يجر إزاره

فتراه يحلب شاة منْ ... زِلهِ ويوقد ناره

ما زال كهفَ مهاجري ... هـ ومُكْرِما أنصاره

براً بمُحسِنهم مقي ... لاً للمسيء عثاره

يهب الذي تحوي يدا ... هـ لطالبٍ إيثاره

جعل الإله صلاته ... أبدا عليه نثاره

فاختر من الأخلاق ما ... كان الرسول اختاره

لتُعَدَّ سنّيًّا وتو ... شك أن تبوّأ داره



مدد دعائي!

اللهم اجعلني في عيني صغيرا ..

وفي أعين الناس كبيرا ..

اللهم اجعلني خيرا مما يقول الناس ..

واغفر لي ما لا يعلمون ..

ولا تؤاخذني بما يقولون ..

اللهم لا تصرف قلبي عن آياتك ..

ولا تحرمني من رؤية عظاتك ..

اللهم اجعلني سهلا للمؤمنين ..

هيِّنا للمتقين ..

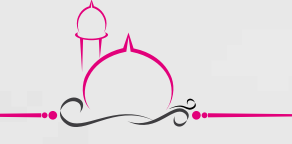
ليِّنا للخلق أجمعين ..

وحرِّم بذلك وجهي على النار يا رب العالمين ..

اللهم اجعلني من الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ..

طهِّر قلبي من أي ذرة كبر ..

وامنحني بذاك أعلى الثواب والأجر ..





المعركة السابعة: مفتاح الزيادة

ولأن الشيطان يكرهك .. يريد سلبك هذه النعمة .. عن طريق أن ينسيك واجب الشكر عليها، ولهذا جزم علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

(إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشُّكر من العبد) (١٧٩) .

ولهذا أطلق الحسن البصري تسميات جديدة على الشكر بحسب دوره الذي خلقه الله له:

(كانوا يسمون الشُّكر (الحافظ)؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة، و(الجالِب)؛ لأنه يجلب النعم المفقودة) (١٨٠) .

أركان الشكر الثلاثة

أما أركان الشكر الثلاثة، فقد قال عنها الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجّبا

وذلك أن من أسدى إليك معروفا فإنك تردُّ له الجميل بشكل فطري عن طريق ثلاث جوارح:

لسانك: يلهج له بالشكر والثناء عليه في حضوره وتكرِّر مناقبه في غيبته.

وقلبك: فيشعر بالامتنان والتقدير نحوه، ويمتلئ بمحبته.

وجوارحك: فتنتهز أي فرصة لتحسن إليه، وتسدي له بعض ما أسدى إليك.

هذا حالك مع البشر، فكيف مع رب البشر؟!

(١٧٩) عدة الصابرين ص ١٢٣.
(١٨٠) عدة الصابرين ص ١٢٢.

وهذا رد فعلك مع الإحسان البشري المحدود، فكيف بالإحسان الإلهي اللامحدود؟!

وهذا شكرك لصاحبك ذي النقائص والعيوب، فكيف بشكرك لربك المنزَّه عن كل النقائص والعيوب؟!

وهذا الشمول في الشكر هو من تعريفات العبد الشكور، فالشكور هو الذي يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله، أما الشاكر يكون ببعض هذا، وهم قلة في العباد كجوهرة لامعة في كومة من الرمال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] .

ولذا قالوا: (**شكر النعم على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطنا، والتحدث بها ظاهرا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها**)[١٨١] .

ولكي نكون من هذه القلة الفائزة، فلنحرص على..

١. الشكر اللساني:

التزامك بسنة النبي ﷺ، وسيرك على نهجه سائر يومك ..

تستيقظ من نومك، فتقول:

«الحمد لله الذي رد على روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره».

وبعد الأكل والشرب:

«كان إذا أكل أو شرب قال: الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا»[١٨٢]

وعند النوم:

«كان إذا أوى إلى فراشه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وأوانا، فكم ممن

---

(١٨١) الوابل الصيب ١/ ٥.

(١٨٢) صحيح: رواه أبو داود والنسائي وابن حبان عن أبي أيوب كما في صحيح الجامع: ٤٦٨١ .



لا كافي له ولا مؤوي له »[183] .

وبعد الخروج من الخلاء: «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني»[184] .

بل قرَّر النبي ﷺ أنَّ:

«أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»[185] .

هذه المحافظة على الأذكار المأثورة تجعل الشكر اللساني سهلًا يسيرا، بل وجعل الله الحمد ثمنا يدفعه المرء إذا أراد النجاة من البلاء والسلامة من الشدائد، فأوصاك الحبيب ﷺ:

«من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضَّلني على كثير ممن خلق تفضيلا؛ لم يصبه ذلك البلاء»[186] .

بل وجعل هذا جزءا من الشكر الواجب عليك:

«إذا رأى أحدكم مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضَّلني عليك وعلى كثير من عباده تفضيلا، كان شكر تلك النعمة»[187] .

والابتلاء يكون في أمر بدني كبرَص وقِصَر فاحش أو طول مفرط أو عمى أو عرج أو اعوجاج يد ونحوها، أو أمر ديني وهو الأخطر من نحو فسق أوظلم أو كِبر أو عري أو ترك صلاة أو تهاون برِبًا أو عقوق والدَين أو فحش في القول وغيرها.

وقد ربَّاك النبي ﷺ على التفاؤل، واستخدام اللغة الإيجابية ولو في أحلك الظروف وأشد المحن، واسمع إليه يربيك على هذه القيمة التربوية التي تعيد صياغتك حالتك

---

(١٨٣) صحيح: رواه ابن ماجة عن أنس كما في سنن الترمذي ٣٠١.
(١٨٤) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أنس كما في صحيح الجامع ٤٦٨٩.
(١٨٥) حسن: رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة عن جابر كما في صحيح الجامع ١١٠٤.
(١٨٦) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في الكلم الطيب رقم: ٢٢٨ والسلسلة الصحيحة رقم: ٦٠٢.
(١٨٧) حسن: رواه البيهقي عن أبي هريرة كما في الروض النضير رقم: ١٠٥٠.

النفسية باستمرار:

«كان إذا أتاه الأمر يسُرُّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر يكرهُه قال: الحمد لله على كل حال» (١٨٨) .

وهي تربية نبوية تستهدف الوصول بك تدريجيا إلى مقام "الشكور" الذي يشكر الله في البلاء كما يشكره سائر الناس في الرخاء.

وأعلى هذه النعم هي نعمة الإيمان .. نعمة القرآن .. نعمة الهداية، ولهذا يعلو هتاف أهل الجنة فور الدخول:

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

بل إن أهل الجنة كما في صحيح مسلم يُلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس، فهم لا يحمدون الله على المال والعيال، بل على نعمة الهداية التي أدت بهم إلى روعة المآل.

وإذا كانت القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فلا أشد لؤما من شغل قلبك بحب غير من أنعم عليه.

والناس ما هم غير أسباب، فكيف تشكر السبب وتمتن له ولا تشكر مُسبِّب الأسباب.

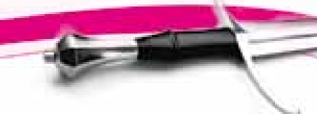
وذِكْر القلب يؤدي إلى المحبة، والمحبة تؤدي إلى عدم المخالفة، وعدم المخالفة تؤدي إلى طاعة أوامره والتلذذ بمرضاته.

٢. العمل الثاني: التفكر

وهذا التفكر من أجل العبادات التي تؤدي بك إلى ارتداء ثوب الشكر ولو في الشدائد، وانظر تفكر **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه عند نزول البلاء، وكيف أدى به. قال رحمه الله :

---

(١٨٨) صحيح: رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم عن عائشة كما في السلسلة الصحيحة رقم:٢٦٥.



(ما ابتليتُ ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم:

إذا لم يكن في ديني،

وإذا لم يكن أعظم،

وإذا لم أحرم الرِّضا به،

وإذا أرجو الثَّواب عليه)[١٨٩] .

ومن ثمرات هذا التفكر ما وصل إليه **أبو الدرداء** الذي كانت أكثر عبادته التفكر، وهو: أن النعمة العظمى والهبة الكبرى في حياة المرء هي دينه، وأن الذي يحصر نعم الله عليه في الطعام والشراب فحسب هو إنسان لم يعلم غاية وجوده وسر حياته، ولذا قال:

(ومن لا يعرف نعمة الله إلا في مطعمه أو مشربه فقد قلَّ علمه وحضر عذابه)[١٩٠] .

هذا عبدٌ رباني .. قهر شيطانه وأخزاه حين تفكر بقلبه في نعمة الله عليه العظمى كما روت ذلك أخته **زبدة** أخت **بشر بن الحارث** فقالت:

(دخل بِشر عليَّ ليلة من الليالي فوضع إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارج الدار، وبقي كذلك يتفكر حتى أصبح، فلما أصبح قلت له: في ماذا تفكرت طول الليلة؟

قال: تفكرت في بِشر النصراني وبِشر اليهودي وبِشر المجوسي، ونفسي واسمي بِشر، فقلت: ما الذي سبق منك حتى خصَّك؟!

فتفكَّرت في تفضله عليَّ، وحمدته على أن جعلني من خاصته، وألبسني لباس أحبائه)[١٩١] .

---

(١٨٩) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٢- ٢٩٣.
(١٩٠) الزهد لأحمد ص ١١٠.
(١٩١) الزهد لأحمد ص ١١٠.

مدد دعائي!

يا من قلت في كتابك:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾

اجعلنا من هذا القليل..

ارزقنا شكرك في السراء والضراء ..

عند الرخاء والبلاء ..

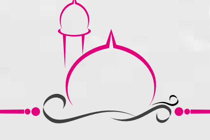
اللهم أذق قلوبنا لُطفك عند الشدائد ..

وحكمتك في المضائق ..

اللهم أتمم علينا نعمتك ..

وأجْلِب بشكرنا علينا المزيد ..

يا فعالاً لما يريد .



المعركة الثامنة: الكذب

قال ابن القيم عن أرباح الشيطان في معركة كهذه:

(الكذب متضمن لفساد نظام العالم، ولا يمكن قيام العالم عليه لا في معاشهم ولا في معادهم، بل هو متضمن لفساد المعاش والمعاد، ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم، كيف وهو منشأ كل شر، وفساد الأعضاء لسان كذوب. وكم أزيلت بالكذب من دول وممالك، وخربت به من بلاد، واستُلِبت به من نعم، وتقطَّعت به من معايش، وفسدت به مصالح، وغرست به عداوات، وقطعت به مودات، وافتقر به غني، وذلَّ به عزيز، وهتكت به مصونة، ورُمِيَت به محصنة، وخلت به دور وقصور، وعمرت به قبور، وأزيل به أنس، واستجلبت به وحشة، وأفسد به بين الابن وأبيه، وغاض بين الأخ وأخيه، وأحال الصديق عدواً مبينا، ورد الغني العزيز مسكيناً، وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب الكاذبين على الله وعلى رسوله، وعلى دينه، وعلى أوليائه، المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية)[(١٩٢)] .

وهي معركة لا ينهزم فيها المؤمن الحق أبدا.. قد ينهزم في معركة البخل أو الجبن، وأما الكذب فلا، فقد سُئِل ﷺ:

أيكون المُؤمن جبانًا؟

فقال: «نَعم»،

فقيل له: أيكون المؤْمن بخيلاً؟

فقال: «نعم»،

فقيل له: أيكون المؤمِن كذَّابًا؟

فقال: «لا» [(١٩٣)] .

---

(١٩٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٧٣.

(١٩٣) موطأ مالك - كتاب الكلام حديث: ٨٢٤ .

والهزيمة في هذه المعركة يؤدي إلى تباعد أقرب الناس منك وأحبهم إليك، فهو أبغض الأخلاق إلى رسول الله ﷺ، فكيف توالي عدوك على حساب ما يكره حبيبك؟!

وإذا كان أقرب الناس منه مجلسا يوم القيامة أحاسنهم أخلاقا، فإن الكاذب يبتعد عن رسوله بمقدار كره نبينا لخُلُق الكذب، وقد روت **عائشة رضي الله عنها**:

(ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة، فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة) (١٩٤) .

١. آية المنافق ثلاث:

قال رسول الله ﷺ:

«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» (١٩٥) .

إذا أراد الشيطان أن يوقعك في فخ النفاق، فليس أقرب من مزلة الكذب تنزلق بها قدمك، ولاحظ أن المنافق يصيح في الناس أنه مسلم، ولا يعترف بنفاقه.. إنه تسلل داء النفاق دون أن يشعر صاحبه فيستدرك، وما أخفاه وما أشدَّه.

٢. الكذب أول الفجور:

قد مرَّ بنا ان الشيطان لحوح طمَّاع، ولذا فالكذب أول خطوة في طريق الفجور، والفجور سائق إلى النار،ففي الحديث:

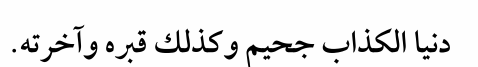
«إياكم والكذب! فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذابا» (١٩٦) .

---

(١٩٤) صحيح: رواه أحمد والبزار واللفظ له وابن حبان في صحيحه كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٩٤١

(١٩٥) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٩٩٧.

(١٩٦) صحيح: روا أحمد ومسلم والترمذي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم : ١٤٤٢ .



دنيا الكذاب جحيم وكذلك قبره وآخرته.

فأول ما يؤدي إليه الكذب هو الفجور.

وأصل الفجور: الميل والعدول، وإنما قيل للكذب الفجور، وللكاذب الفاجر لميله عن الصِّدق وعدوله عنه.

قال الإمام ابن القيم:

(لا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤] مقصور على نعيم الآخرة، وجحيمها فقط؛ بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟!) (١٩٧) .

فهذه نهاية الكذب وعاقبته!

عاقبة يصنعها الكاذب بيده في الدنيا، ولا تنتهي به إلا في قعر جهنم!

والنعيم كما ترى أبدي، والعذاب كذلك.

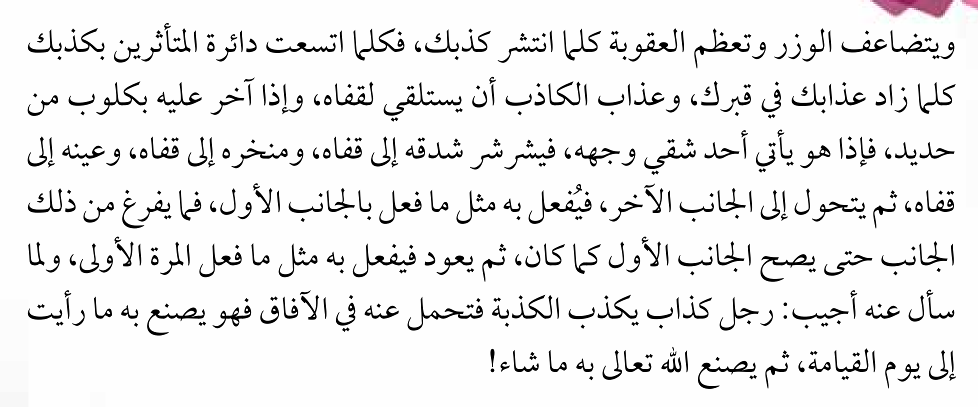
٣. كذب المشاهير:

وفي سوء عاقبة الكذب يوم القيامة يقول النبي ﷺ:

«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: الإمام الكذَّاب، والشيخ الزاني، والعائل المزهُوُّ» (١٩٨).

فكلما علت مكانتك وزادت رتبتك كان الكذب في حقك أبشع والعقوبة أعظم، لأنه يزِلُّ بكذبتك خلق كثير، رأوا القدوة فيك وخدعتهم، وسقتهم إلى الباطل يحسبونه حقا،

(١٩٧) الجواب الكافي ص ٧٦.
(١٩٨) حسن صحيح: رواه ابن حبان عن أبي هريرة كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم: ٧٢٩٣.



ويتضاعف الوزر وتعظم العقوبة كلما انتشر كذبك، فكلما اتسعت دائرة المتأثرين بكذبك كلما زاد عذابك في قبرك، وعذاب الكاذب أن يستلقي لقفاه، وإذا آخر عليه بكلوب من حديد، فإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيُفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح الجانب الأول كما كان، ثم يعود فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى، ولما سأل عنه أجيب: رجل كذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه في الآفاق فهو يصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء!

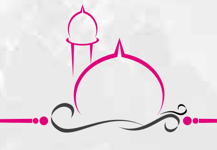
وفي قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ﴾ إشارة، فإذا سُئِل الصَّادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظَّنُ بالكاذبين؟!

ولم يتهاون النبي ﷺ في الكذب ولو كان غير مقصود، فعن **أسماء** قالت: **أتانا النبي ﷺ فأتي بلبن** فقال:

أتشرَبْن؟!

قلنا: **لا نشتهيه**، فقال:

«لا تجمَعْن كذبا وجوعا» [١٩٩].



(١٩٩) حسن: رواه أحمد وابن ماجة عن أسماء بنت عميس كما في آداب الزفاف رقم: ١٧.



أنواع الكذب

الأول: الكذب التجاري:

خرج النبي ﷺ يوما إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون، فقال: **يا معشر التجار!**

فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه.. فقال :

«إن التجار يُبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبرَّ وصدق»(٢٠٠) .

يغزو النبي ﷺ الشيطان في عقر داره .. ذلك أن شر الأماكن الأسواق ..

وفي حديث آخر:

«إن التجار هم الفُجَّار».

قيل: يا رسول الله..أو ليس قد أحلَّ الله البيع؟!

قال:

«بلى، ولكنهم يحدِّثون فيكذبون، ويحلِفون فيأثمون»(٢٠١) .

فكم من خاسرٍ لهذه المعركة في السوق؟!

وكم من نشوة انتشاها الشيطان وهو يوقع في فخاخه تاجرا من التجار.

وكم من أجرٍ عظيم ينتظر من سَبَح عكس التيار، وبرَّ وصدق وانتمى لمعسكر الأبرار.

الثاني: الكذب التجميلي أو التباهي:

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي زوجًا ولي ضرة، وإني أتشبع من

---

(٢٠٠) صحيح: رواه الترمذي والدارمي وابن ماجة وابن حبان والحاكم كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٩٩٤.

(٢٠١) صحيح: رواه أحمد والحاكم كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٦٦.

زوجي أقول: **أعطاني كذا وكساني كذا وهو كذب**؛ يعني لكي تغار ضرتها تقول: **زوجي أعطاني وكساني حتى تغار**، فقال رسول الله ﷺ لتلك المرأة التي تقول لضرتها هذا الذي لم يفعله الزوج لتكيد لها وتغيره؛ قال ﷺ:

«المتشبِّع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور» (٢٠٢).

يعني هذا زور وبهتان، وهذا إشارة إلى معالجة نقطة ضعف نسوية يتسلل منها الشيطان ليوقع بنات حواء في فخ الكذب، وهو يدل على شهوة التباهي والتفاخر التي تشتهر بها الطبيعة الأنثوية، وليس هذا عذر للوقوع في الكذب، وهو ما يسميه البعض بالكذب الادعائى، الذي يزعم به المرء أنه على شيء وليس بشي، والذي يلجأ إليه المرء حين الشعور بالنقص أو الحرمان، حيث يرتدي قناع الأقناع ليدلِّس به على الآخرين.

الثالث: الكذب المزاحي:

في الحديث:

«ويل للذي يحدِّث فيكذب ليُضحِك به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له» (٢٠٣).

وقد يكون مع الكذب الترويع!! ليبوء العبد بإثم مضاعف وعقوبة مزدوجة، فجزم النبي ﷺ:

«لا يحل لمسلم أن يُروِّع مسلما» (٢٠٤).

وكثير من الغافلين يقعون في هذا الفخ عن جهل، وإذا كان ترويع المسلم حراما، فكيف بما هو ما فوق الترويع من الإيذاء القولي أو الجسدي؟!

ويدخل في هذا ما اعتاد الناس على تسميته كذبة إبريل، ولذا جزم **الإمام أحمد بن حنبل**:

---

(٢٠٢) صحيح: رواه أحمد والشيخان عن أسماء بنت أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٧٥.
(٢٠٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن معاوية بن حيدة المشكاة رقم: ٤٨٣٨.
(٢٠٤) صحيح: رواه أحمد وأبو داود عن رجال كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٥٨.



(الكذب لا يصلح منه جِدٌّ ولا هزل) [٢٠٥] .

الرابع: الكذب الروائي

قال رسول الله ﷺ:

«كفى بالمرء كذبا أن يحدِّث بكل ما سمع» [٢٠٦] .

وسرْد كلَّ ما سمع المرء منه دون أن يتثبت في الألفاظ التي سمعها هو تجاوزٌ يجعله في درجة الكاذب، وصدق رسول الله ﷺ، فإن الله قد وهب الناس نعمة العقل لينقِّحوا به ما يصل الآذان وليحكِّموه في ما ينطق به اللسان، وأكثر الناس يميلون إلى المبالغة، فإن ذهب المرء يحكي كلَّ ما يسمع كان حديثه مختلطا بكذب لا محالة.

والحديث عام في غير موضوع حديث رسول الله ﷺ، بل في ما يطرأ لهم من كلام عام في شئون الحياة والناس، لكن يدخل فيه التحذير الشديد لمن يتحدث بحديث رسول الله ﷺ دون التثبت في الرواية.

وقد صُنِّف هذا الحديث الشريف تحت باب (**ضرورة احتراز و تثبت المرء فيما يروي من حديث**)؛ إذ إن مسؤولية رواية الحديث جليلة خطيرة، فهذا الحديث دين نتعبَّد الله به؛ إذ إن السنة هي المصدر الثاني للتشريع، ولذا كان من أعظم الكذب على رسول الله ﷺ أن يدَّعي أحد عليه ما لم يقله، فعن **المغيرة بن شعبة** قال: **قال رسول الله ﷺ**:

«من حَدَّث عني بحديثٍ يُرى أنه كَذِبٌ، فهو أحد الكاذبِين» [٢٠٧] .

---

(٢٠٥) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٢٣.

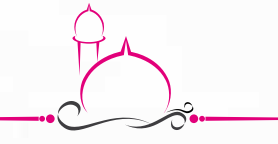
(٢٠٦) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٨٢.

(٢٠٧) صحيح: رواه أحمد ومسلم وابن ماجة عن سمرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٩٩.

الخامس: الكذب الدِّفاعي

يكذب الفرد خوفاً مما قد يقع عليه من عقوبة، وللتهرب من النتائج غير السارة لسلوكه، وهنا اختبار الصدق الحقيقي، ويزيِّن له الشيطان أن النجاة في الكذب، ومُحال أن يجعل الله النجاة في مخالفة أمره، ولذا قال الجنيد:

(**حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجّيك منه إلا الكذب**)(٢٠٨).



(٢٠٨) مدارج السالكين ٢/ ٢٩٠.



بطولات ميدانية

قال الشيخ عبد القادر الكيلاني:

(بنيتُ أمري على الصدق، وذلك أني خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم، فأعطتني أمي أربعين دينارا، وعاهدتني على الصدق، فلما وصلنا أرض همدان خرج علينا عربٌ، فأخذوا القافلة، فمرَّ واحد منهم، وقال: ما معك؟

قلت: أربعون دينارا.

فظنَّ أني أهزأ به، فتركني فرآني رجل آخر، فقال: ما معك؟ فأخبرته فأخذني إلى كبيرهم، فسألني فأخبرته، فقال: ما حملك على الصدق؟

قلت: عاهدتني أمي على الصدق، فأخاف أن أخون عهدها، فصاح ومزَّق ثيابه، وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله!

ثم أمر بردِّ ما أخذوه من القافلة، وقال: أنا تائب لله على يديك، فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة، فتابوا جميعا ببركة الصدق) [٢٠٩].



(٢٠٩) نزهة المجالس ومنتخب النفائس ١/ ١٤٥.

مَدد دعائي!

اللهم ارزقنا صدق اللسان..

وصدق الجنان..

وصدق العمل..

وصدق النية..

صدق المسألة..

وصدق التوكل عليك..

والافتقار لك..

طهر ألسنتنا من الكذب ..

وقلوبنا من الخيانة ..

وخلِّقنا بالصدق ..

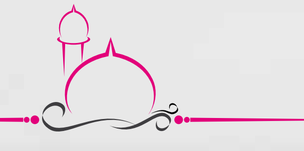
واكتبنا عندك من الصديقين ..

نجِّنا في دنيانا وأخرانا ببركة الصدق وسره ..

وجنِّبنا الكذب وأهله ..

واجعلنا من عبادك الذين خصصتهم بقولك:

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .



المعركة التاسعة: الخوف

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥]

لا تخافوا أيها المؤمنون من المشركين، ولا يعظُمَنَّ عليكم أمرهم، ولا ترهبوا جمعهم، وذلك ما أطعتموني واتبعتم أمري، وإني متكفِّل لكم بالنصر والظفر، ولكن خافون واتقوا أن تعصوني وتخالفوا أمري، فتهلكوا إن كنتم مؤمنين.

وفي الآية تنبيه إلى الموازنة بين أولياء الشيطان من مشركي مكة، وبين الله ولي المؤمنين القادر على كل شيء، وكأنه يقول: قارنوا بين قوتي وقوتهم، ونصرتي ونصرتهم، فأنا من وعدتكم بالنصر، وأنا وليكم ونصيركم ما أطعتموني، وأطعتم رسولي.

﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ على قولين:

الأول: يُرْهِبكم بأوليائه الكافرين والمنافقين.

والثاني: يخوِّف أولياءه المنافقين.

قاله الحسن والسدي:

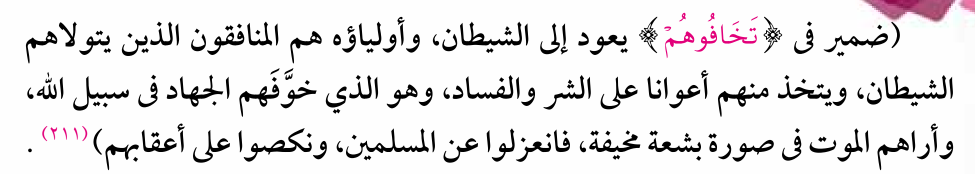
(المعنى: يخوِّف أولياءَه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين، فأما أولياء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوَّفهم) [٢١٠].

الشيطان لا يخوِّف إذن إلا أولياءه، لأنه لا سلطان له على أولياء الله المؤمنين، ولذا فهو عاجز عن تخويفهم.

قال الطاهر بن عاشور في مزيد بيان:

---

(٢١٠) القرطبي ٤/ ٢٨٢.



(ضمير فى ﴿تَخَافُوهُمْ﴾ يعود إلى الشيطان، وأولياؤه هم المنافقون الذين يتولاهم الشيطان، ويتخذ منهم أعوانا على الشر والفساد، وهو الذي خوَّفَهم الجهاد فى سبيل الله، وأراهم الموت فى صورة بشعة مخيفة، فانعزلوا عن المسلمين، ونكصوا على أعقابهم) [٢١١].

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن من يرجِّح الخوف من أولياء الشيطان على الخوف من الله إيمانه مشكوك فيه.

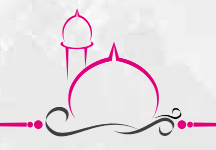
فليزن كل مؤمن نفسه في ضوء هذه الآية، وليقارن بين عمله وعمل الصحاب الأولين، وبين إيمانه وإيمانهم، لكي لا يكون من المخدوعين بإيمانه وهو لا يشعر، وليعلم في ضوء هذه الآية أن الخوف من الخلق عقوبة ربانية لازمة على ضعف الخوف من الخالق، ولتؤنسه بشارة ونذارة **عامر بن عبد قيس**:

(من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء) [٢١٢].

وليعلم كل عبد أن العلاقة عكسية بين الخوف من الله والخوف من أولياء الشيطان، فكلما زاد الأول نقص الثاني، وكلما نقص الأول زاد الثاني.

قال **ابن القيم**:

(فكلما قَوِي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم) [٢١٣].



(٢١١) التحرير والتوير ٤/ ١٧٢.
(٢١٢) صفة الصفوة ٢/ ١٢٢.
(٢١٣) إغاثة اللهفان ١/ ١١٠.

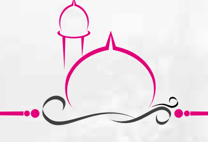


بطولات ميدانية

قيل لعمر بن عبد العزيز:

لو اتخذت حرسا، واحترزت في طعامك وشـــرابك، فإنَّ من كان قبلك يفعله، فقال:

(اللهم إن كنت تعلم أني أخاف شيئا دون يوم القيامة فلا تؤمِّن خوفي)[٢١٤]





(٢١٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٥/ ٢٩٢.

معركة الشيطان مع الجماهير

يقول صاحب الظلال:

(إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ..
وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة. .

ومن ثم ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان ، وأن يبطلوا محاولته.

فلا يخافوا أولياءه هؤلاء، ولا يخشوهم.

بل يخافوا الله وحده.

فهو وحده القوي القاهر القادر الذي ينبغي أن يخاف:

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

إن الشيطان هو الذي يضخِّم من شأن أوليائه ..

ويُلبِسهم لباس القوة والقدرة ..

ويوقِع في القلوب أنهم ذوو حول وطول ..

ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه ..

وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد ..

وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب ..

فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ..

ولا يُفكِّر أحد في الانتقاض عليهم، ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل، وأن يتضخم الشر..

وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا ..

لا تقف في وجهه معارضة ..

ولا يصمد له مدافع ..

ولا يغلبه من المعارضين غالب. .

الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا).

شبهة شيطانية

وهذه شبهة شيطانية ردَّ عليها رشيد رضا في تفسيره؛ المنار :

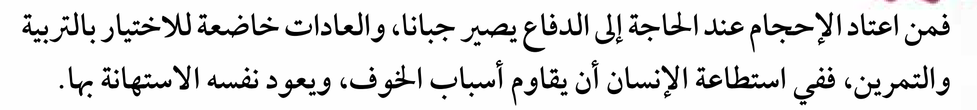
(وفي هذا المقام شبهة تعرض لبعضهم..يقولون:

إن تكليف عدم الخوف من تكليف ما لا يُستطاع، ولا يدخل في الوسع، فإن الإنسان إذا علم أن العَدَد الكثير ذا العُدَدِ العظيمة يريد أن يواثبه ويُنزِل به العذاب، أو سمع باستعداده من الثقات، فإنه لا يستطيع إلا أن يخافه، فكان الظاهر (الأَوْلى) أن يؤمروا بإكراه النفس على المقاومة والمدافعة مع الخوف لا أن يُنْهوا عن الخوف.

والجواب:

إن هذه الشبهة حُجَّة الجبناء، فهي لا تطوف إلا في خيال الجبان، فإن أعمال النفس من الخوف والحزن والفرح يتراءى أنها اضطرارية، وأن آثارها كائنة لا محالة مهما حدث سببها، والحقيقة أن ذلك اختياري من وجهين:

(أحدهما) **أن هذه الأمور تأتي بالعادة والمزاولة، ولذلك تختلف الشعوب والأجيال،**



فمن اعتاد الإحجام عند الحاجة إلى الدفاع يصير جبانا، والعادات خاضعة للاختيار بالتربية والتمرين، ففي استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف، ويعود نفسه الاستهانة بها.

(وثانيها) أن هذه الأمور إذا حدثت بأسبابها فالإنسان مختار في الإسلاس لها، والاسترسال معها حتى يتمكن أثرها في النفس، وتتجسَّم صورتها في الخيال، ومختار في ضد ذلك وهو مغالبتها، والتعامل في صرفها وشغل النفس بما يضادها، ويُذهِب بأثرها، أو يتبدل به أثرا آخر مناقضا له، فهذا الأمر الاختياري هو مناط التكليف، كأنه يقول:

إذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله على كل شيء، وكونه بيده ملكوت كل شيء، وهو يُجير ولا يُجار عليه، وتذكَّروا وعدَه بنصركم، وإظهار دينكم على الدين كله، وأن الحق يدمغ الباطل، فإذا هو زاهق، وتذكروا قوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ثم خذوا أهبتكم، وتوكلوا على ربِّكم، فإنه لا يدع لخوفِ غيره مكانا في قلوبكم»(٢١٥).

العبد المأمور!

خالد بن الريَّان المحاربي! نموذج استعبده الشيطان وأضله من وراء جبنه وخوفه، وما أكثر من يشبهه في زماننا ممن اشتهروا باسم (العبد المأمور)!!

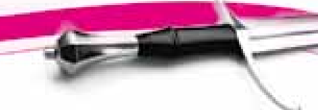
واسمعوا القصة:

ولي خالد بن الريان الحرس لعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك.

رُوِي أن حروريا شتم سليمان بن عبد الملك، فقال سليمان لعمر بن عبد العزيز: ماذا ترى عليه؟

قال: أن تشتمه كما شتمك.

(٢١٥) تفسير المنار ٤/ ٢٠٠-٢٠١.



فأمر سليمان به فضربت عنقه! وقام سليمان وخرج عمر فتبعه خالد فقال:

يا أبا حفص!

تقول لأمير المؤمنين ما أرى عليه إلا أن تشتمه كما شتمك، والله لقد كنت متوقِّعاً أن يأمرني بضرب عنقك.

فقال عمر: **لو أمرك فعلت؟!**

قال: **أي والله!**

فلما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز جاء خالد وقام مقام صاحب الحرس، فقال عمر: **يا خالد! ضع هذا السيف عنك.. اللهم إني قد وضعت لخالد بن الريَّان.. اللَّهم لا ترفعه أبدا! ثم أعطى السيف عمرو بن مهاجر الأنصاري وولاَّه الحرس لأنه رآه يحسن الصلاة.**

قال نوفل بن الفرات:

(فما رأيت شريفاً خمل ذكره حتى لا يذكر مثله، إن كان الناس ليقولون ما فعل خالد أحيٌّ أم قد مات)[٢١٦] .

وفي الحديث الذي يكسر أنف الشيطان ويبطل كيده:

«مثل الذي يعين قومه على غير الحق مثل بعير تَرَدَّى وهو يجُرُّ بذَنَبِه»[٢١٧] .

وفي رواية:

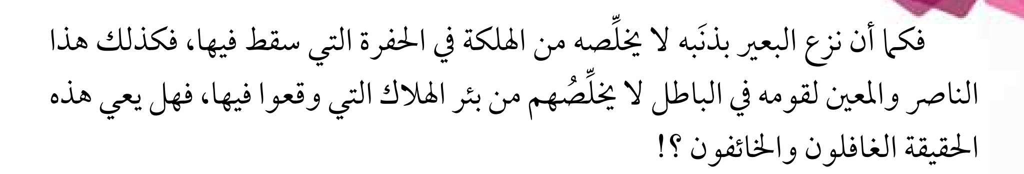
«من نصر قومه على غير الحقِّ، فهو كالبعير الَّذي تردَّى، فهو يُنزَعُ بذنَبِه»[٢١٨] .

---

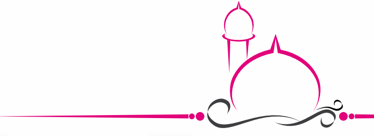
(٢١٦) الوافي بالوفيات ١٣/ ١٥١.

(٢١٧) صحيح: رواه البيهقي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٣٨.

(٢١٨) صحيح: رواه أبو داود عن ابن مسعودكما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٧٥.



فكما أن نزع البعير بذنَبه لا يخلِّصه من الهلكة في الحفرة التي سقط فيها، فكذلك هذا الناصر والمعين لقومه في الباطل لا يخلِّصُهم من بئر الهلاك التي وقعوا فيها، فهل يعي هذه الحقيقة الغافلون والخائفون ؟!





الأسلحة المضادة

والسلاح المضاد هنا هو الإيمان بالقَدَر:

كيف يخوِّفك الشيطان وممن يخوِّفك وقد قُضِي أمرك وحُسِم منذ آلاف السنين! ففي الحديث:

«فرَغَ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» (٢١٩).

بل وجعل النبي ﷺ حقيقة الإيمان متمثلة في هذا المعنى الذي ينزع كل خوف من الصدور، ويبذر فيها كل شجاعة ورباطة جأش. قال ﷺ:

«ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلت النار» (٢٢٠).

ومن أهم أنواع الخوف التي يقهرها الرضا بالقدر: الخوف على لقمة العيش والكسب مع أن الوحي نزل على نبينا يؤكِّد:

«لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رِزْقه كما يدركه الموت» (٢٢١).

وهو تشبيه بليغ أن الرزق يلاحقك، ومحالٌ أن يقدر أحدٌ على منع وصوله لك.

قال الإمام الجليل إبراهيم بن إسحاق الحربي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل:

(أجمع عقلاء أمة أنه من لم يجْرِ مع القدر -أي يرضَ به- لم يتهنَّأ بعيشه) (٢٢٢).

---

(٢١٩) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٤٢٠٢.
(٢٢٠) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة عن أبي بن كعب كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٤٤.
(٢٢١) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٤٠.
(٢٢٢) تاريخ بغداد ٦/ ٥٢٢.

قَدَر غالب!

روى الحافظ الحُميدي صاحب ابن حزم الظاهري وتلميذه في كتابه (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس)

(أن الوزير أبا عمر أحمد بن سعيد بن حزم –والد ابن حزم- كان جالساً بين يدي مخدمه المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ، في بعض مجالسه العامة، فرفعت له رقعة استعطاف لأم رجل مسجون، كان المنصور اعتقله حَنَقا عليه لجرم استعظمه منه.

فلما قرأها اشتد غضبه، وقال: ذكَّرتني –والله- به، وأخذ القلم وأراد أن يكتب يُصلب، فكتب: يُطلق!، ورمى الورقة إلى وزيره المذكور، وأخذ الوزير القلم وتناول الورقة، وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة، فقال له المنصور: ما هذا الذي تكتب؟ قال: بإطلاق فلان، إلى صاحب الشرطة، فحرد وقال:من أمرك بهذا ؟ فناوله التوقيع.

فلما رآه قال: وهمت، والله ليصلبنَّ، ثم خط على التوقيع، وأراد أن يكتب: يُصلب، فكتب: يُطلق، فأخذ الوزير الورقة، وأراد أن يكتب إلى الوالي بالإطلاق، فنظر إليه المنصور وغضب أشد من الأول، وقال: من أمرك بهذا ؟ فناوله التوقيع، فرأى خطه عليه.

وأراد أن يكتب : يصلب، فكتب: يُطلَق، وأخذ الوزير التوقيع وشرع في الكتابة إلى الوالي، فرآه المنصور فأنكر أكثر من المرتين الأوْلَين، فأراه خطه بالإطلاق، فلما رآه عجب من ذلك وقال: نعم يُطلق على رغمي، فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر أنا على منعه» (٢٢٣) .

(٢٢٣) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ١/ ١٢٦- محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي - الدار المصرية للتأليف والنشر.

العلم الضار!

قال سيد الوعاظ محمد بن السماك :

(كم من شيءٍ إذا لم ينفع لم يضر، لكن العلم إذا لم ينفع ضرَّ) (٢٢٤) .

العلم يضُرُّ من لم يعمل به ..

لأنه يصير حجة عليه ..

يفجؤه السؤال غدا :

وعلمك .. ماذا عملت به ؟!

فلا يعرف له إجابة ؟

ويتصبب العرق منه حياءً بين يدي ربه ..

وكان بيده أن يحوِّله علما نافعا ..

ويتسلح به في مواجهة عدوه ..

وهو الذي طالما استعاذ بالله من عِلْم لا ينفع ..

وهو كل علم لا يُعمَل به ..

ولا يُبدِّل الأخلاق والأقوال والأفعال ..

فبالعمل ..

يرفع الله قدرك وينصرك على عدوك .

---

(٢٢٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٢٩.

بالعمل ..

تفرح لما صعد اليوم من عملك ويصعد كل يوم!

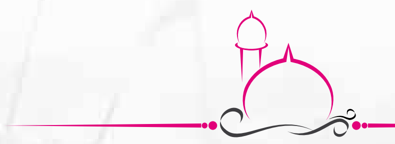
بالعمل ..

يُرى أثر هذا الكتاب على لِسانك وبصرك وجوارحك ..

بالعمل ..

تتحول إلى نسخة ناطقة من هذا الكتاب وإن لم تتكلم!

فكم من كلمة كانت خيرًا من إغداق مال ..
إذا كان فيها النجاة من النار وسوء المآل .



راية الانتصار!

أخي!

هذه ساحة القتال بين يديك.

وقد أرشدتُك فيها إلى الجند الذي لا يُغلب.

والحصون التي لا تُهدم.

فاختر منها ما شئت.

وتحصَّن بأي حصن أردت.

وتأكد أن زمان المعركة قصير قصير.

فاحسم أمرك وابذل جهدك.

فما هي غير أيام قلائل.

ثم يبعث الله لك ملائكته يستقبلونك!

ويزفونك إلى أفخم قصر ويُتحِفونك.

لتستريح أخيرا من عناء الجهاد وجهاد العناء.

وعندها تجد أعداءك من شياطين الإنس والجن ..

مقرَّنين في الأصفاد.

محبوسين بين جنبات النار التي أرادوا أن يجرّوك إليها ..

فنجوتَ.



مساقين في الأغلال التي أرادوا وضعها في عنقك ويديك فأفلتَّ.

تتنفَّس الصعداء أن نجوت من القرار معهم في سكنى الجحيم وسقيا الحميم.

فيا لذة انتصارِك..

وحلاوة فوزك وعلو مقامك!!

فازحف نحو عدوك زحفا..

واملأ قلب الباطل رجفا..

تتقدمك كتائب الذِّكر المرعبة..

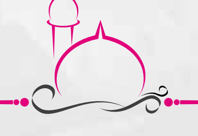
مستصحبا مفاتيح النصر المزلزلة ..

وتعوَّد الاعتذار للأعذار ..

يبلغْ نصرك ما بلغ الليل والنهار.

والله مؤيِّدك وناصرك..

هنيئا أيها البطل!









الفهـــرس

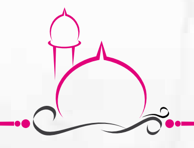


الفهرس

الفصل الأول.. مفهوم الحرب الشاملة

الفصل الثاني: ملائكة ضد شياطين


الفصل الثالث: معارك الشيطان





دار الراية للنشر والتوزيع



د. خالد أبو شادي